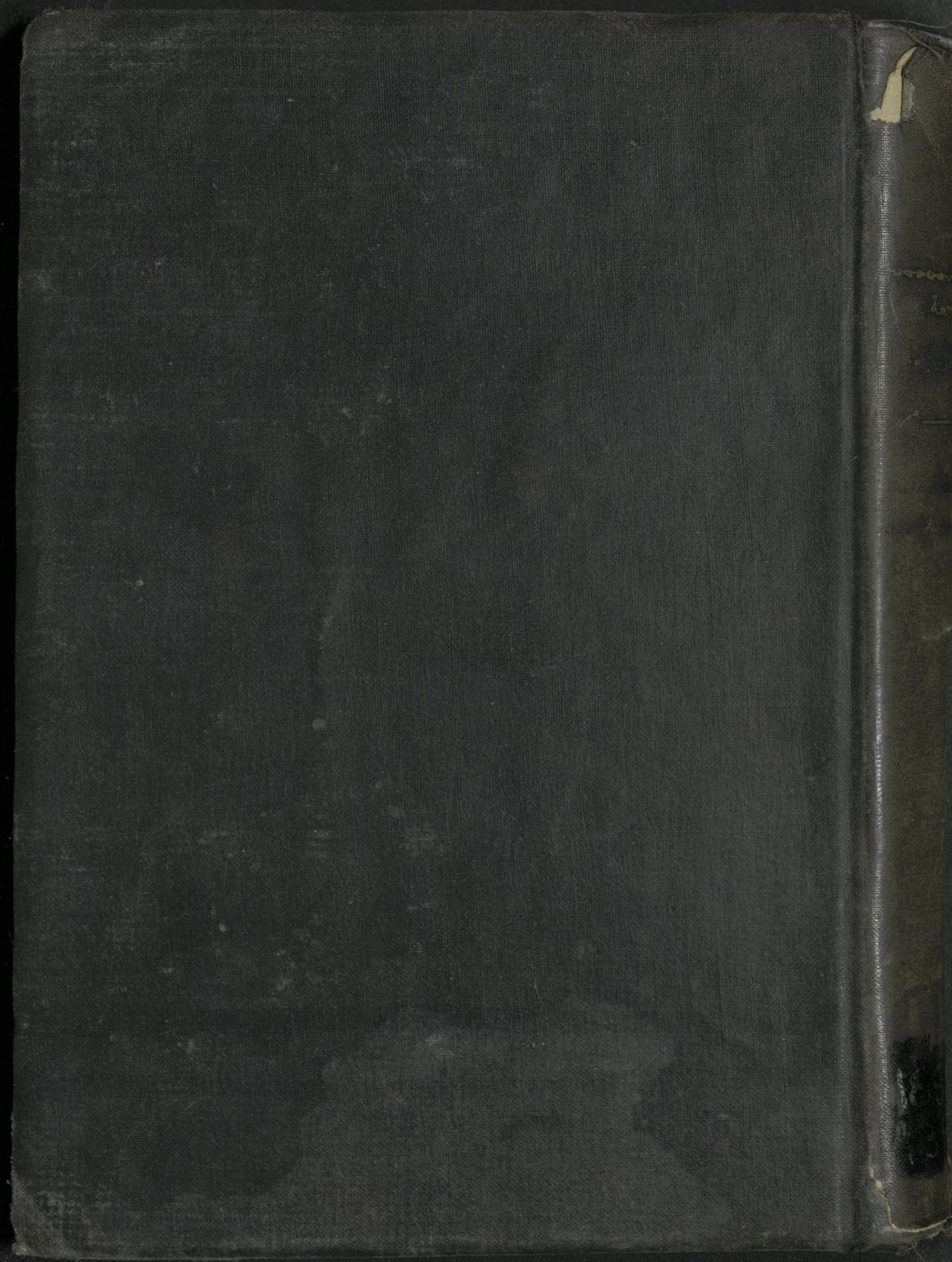
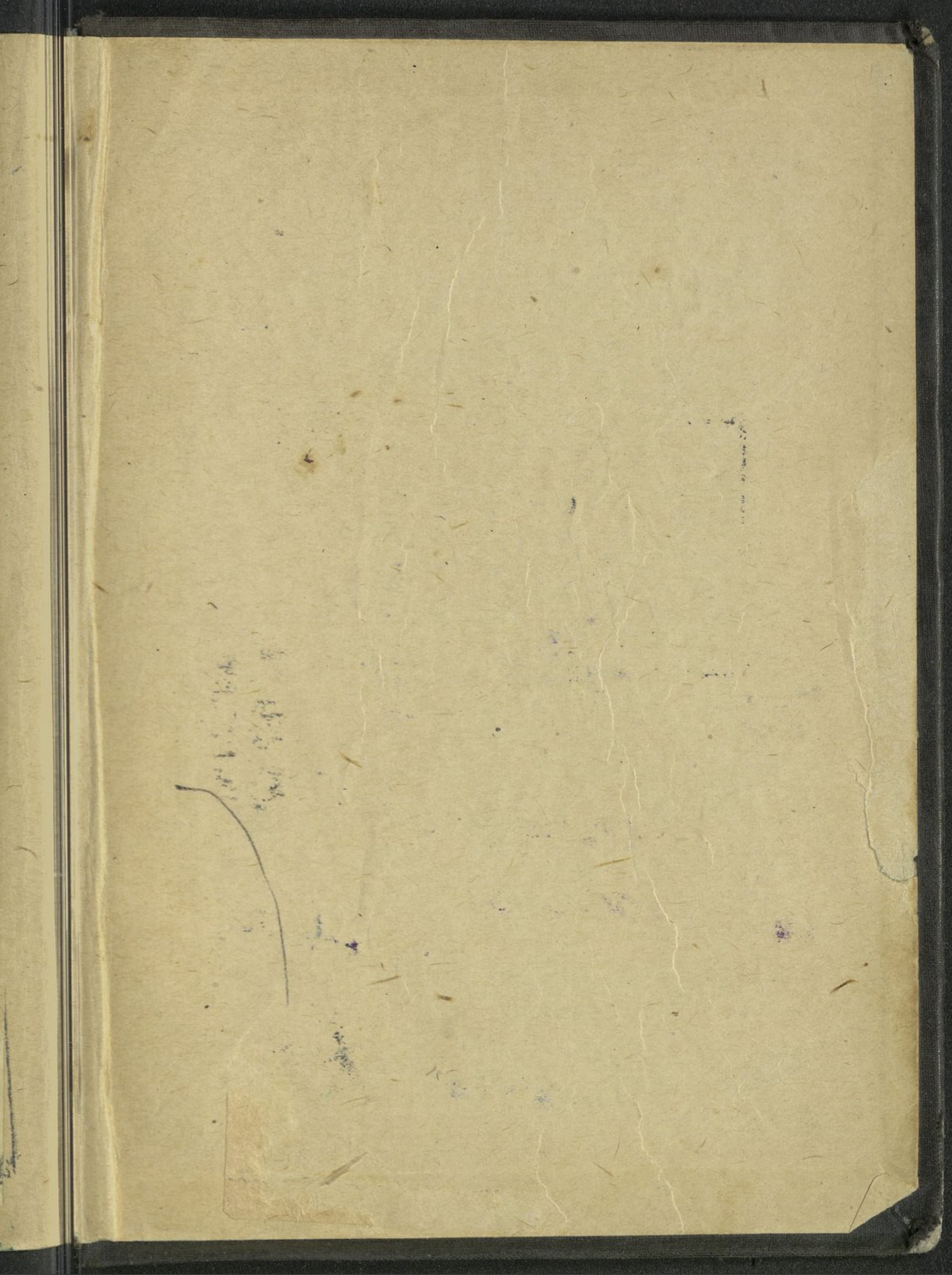




عباس محمود العقاد

رجعة أبى العلاء

ثمن النسخة ١٠ قروش

١٣٥٧ – ١٩٣٩

مطبعة حجازى بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

تمهيد

منذ سنة وشهور نشرت الصحف من أنباء سورية «أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذى أزمعت إقامته فى المعرة على قبر أبى العلاء ، وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاته ، أو على ميلاده كما هو الأصوب

فالمعرى كاره الحياة يعاد طوعا أو كرهاً إلى الحياة كرة أخرى ! .

خطر لى هذا الخاطر فأحببت أن أتخيل « رهن المحبسين» يجوس بيننا خلال الديار ، ويتمرس بأحوال الأمم فى عالمنا الحاضر ، فماذا هو قائل ؟ وماذا هو فاعل ؟

لا شك ان أحوالا كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة فى أيام أبى العلاء ، ولا شك أننا واجدون فى كلامه حكما مكشوفا أو ملفوفا على جميع تلك الأحوال ، فأما ما يختلف من شؤن زماننا وزمانه فهل يستطاع قياسه والنفاذ إلى رأى أبى العلاء فيه وفاقاً لذلك القياس ؟ وهل فى مقدورنا نحن أبناء هـذا الزمن أن ندعو الحكيم إلى الجهر برأيه فيه ؟ ذلك ما قد حاولناه فى هذه الصفحات[1] ، ونحسب أننا قد أصبنا فيه بعض التوفيق ، ان تعذر التوفيق كله فى مجال الفرض والتخمين .

***

ومضت فترة ولم نسمع خبراً عن المحفل المنظور : هل تم بناء الضريح ؟ وهل تم نحت التابوت ؟ وهل تمت

(١) نشرت هذه المقالات والأبواب فى صحيفة البلاغ الغراء ما عدا الأربع الأخيرة فلم يسبق نشرها .

العدة ؟ وهل شُرِيتْ الدور التى تحجب قبر الحكيم ؟ الأرجح أن هذا كله ماض فى طريق التمام ، وأن المحفل المنظور قائم فى موعده قريب . . . لكن أبا العلاء الذى بعثناه وأطفناه بالعالم كله مع بعض تلاميذه قد بلغ غاية المطاف ، وسئم المضيفين والأضياف ، وأحب أن يثوب إلى داره وأن يقر فى قراره . فنحن هنا مثبتون قصيداً لأبى علائنا يودع به من سوف يستقبلونه ، ويعتذر به لمن يمسكونه فى الدنيا ولا يرسلونه ، ويقول أو نقول فى مكانه ، ماينبغى أن يجرى على لسانه . وذلك هو نشيد الوداع فى ختام هذه الصفحات ، أنابنا فى نظمه على سنة اللزوميات ، فله الحسنة منه ، وعلينا نحن السيئات !

***

قيل ان بعض المكتبات الايطالية أهابت بالأدباء

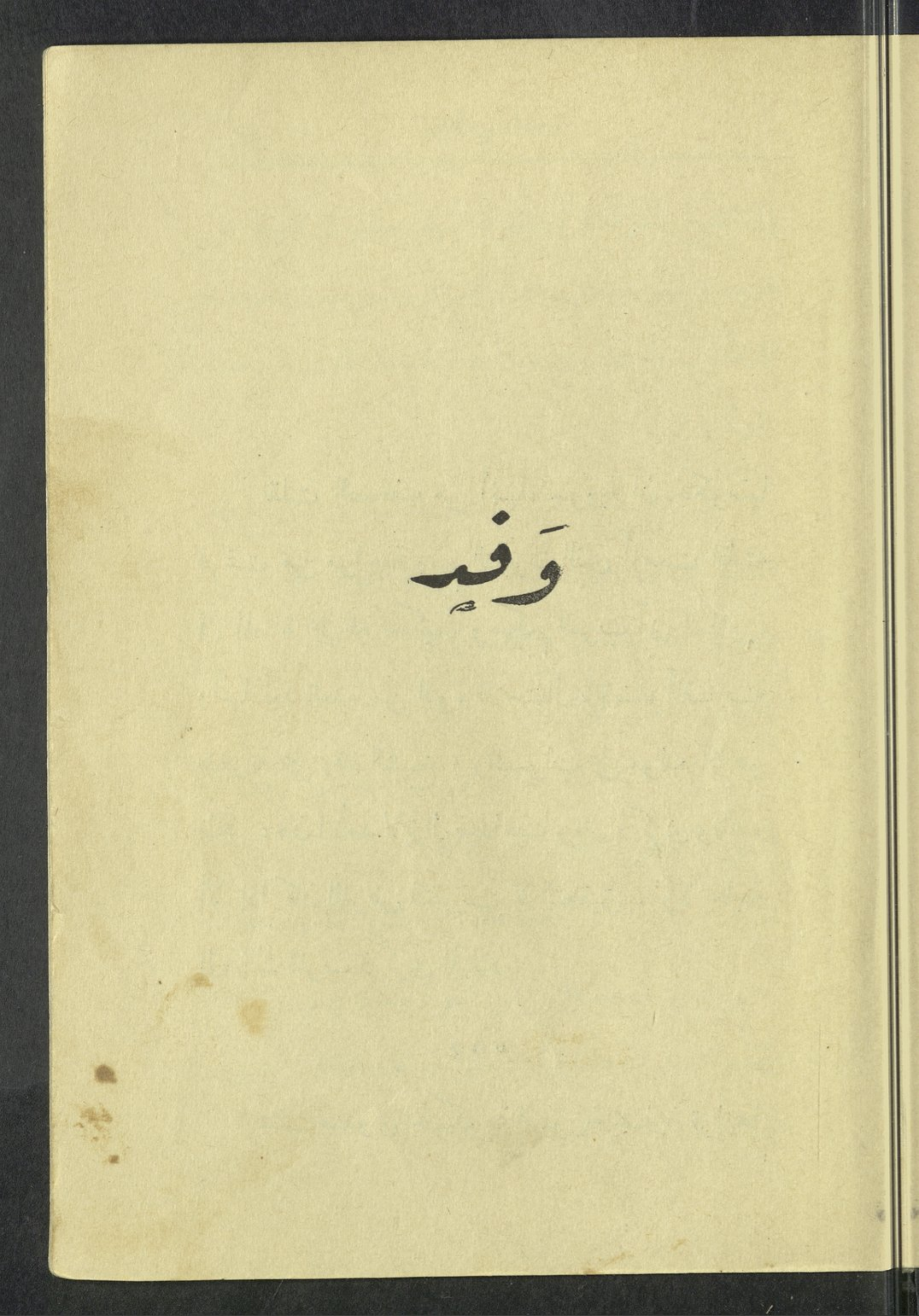
من العرب أن يوافوها باسم الأديب الذى تجتمع فيه خصائص العبقرية العربية ، فأجمعت الآراء على أنه هو أبو العلاء .

وقواعد الانتخاب ليست بمقطع الرأى فى مزايا الفنون والآداب ، ولكننا نراها فى هذه الفتوى قد حكمت بالصواب ، وأجابت أحسن الجواب . إذ الحقيقة أن حكيم المعرة خير من يمثل الذهن العربى والسليقة « السامية » غير مستثنى فى ذلك أحد حتى صاحبه أبو الطيب . . .
لأن تمثيل الذهن غير تمثيل « الطبيعة العملية » التى يرشح فيها أبو الطيب للمكان الأول بين شعراء الضاد .
وأبو العلاء هو الذى يمثل الذهن العربى فى تفكيره وفى مقاييسه وفى نظرته إلى الدنيا ، دون سائر المفكرين من الشعراء .

وعسى أن تكون هـذه الآراء التى وضعناها على لسانه وقسناها إلى المعهود من كلامه هى ترجمان الذهن العربى حين ينظر إلى حقائق العالم فى زماننا الحديث .

عباس محمود العقاد

فهرس



وقف

نقلت الصحف من أنباء سورية أن حكومتها
فرغت من مراجعة رسم التابوت الذى أزمعت اقامته
فى المعرة على قبر حكيمها وحكيم العرب أبى العلاء ،
وأنها تعد العدة من اليوم للاحتفال بانقضاء ألف سنة
هجرية على وفاة الشيخ ، والصواب على مولده كما هو
ظاهر ، فان الأمد لايزال بعيدا بيننا وبين ذكرى وفاته ،
إلا إذا كان الغرض التقريب لا التحقيق ، ولا حاجة
إلى ذاك لقرب ذكرى الميلاد

***

تمثلت مندوبى الحكومة السورية يحملون قرارها

إلى شيخ المعرة ، ويبلغونه أنهم سيبنون تابوتا على قبره ، وأنهم سيدعون علماء المشرق والمغرب إلى موطنه للاحتفال بذكرى ميلاده . فماذا يقول ؟ وماذا يقولون ؟

إن الشيخ ليتململ فى مضجعه بعد أن استراح فيه مئات السنين ، وانه ليخاطب جدثه اليوم كما خاطبه وهو فى قيد الحياة وقيد المحبسين :

يا جدثى حسبك من رتبة
إنك من أجداثهم معزلا
أملنى الدهر بأحداثه
فاشتقت فى بطن الثرى منزلا

ثم يسأل متثاقلا : من أنتم ؟ وماذا تبغون ؟ فلا يُعلمونه من هم وماذا يبغون حتى يتهاتف قائلا : أتبنون لى تابوتا ؟ أما قرأتم أو سمعتم قولى :

إن التوابيت أجداث مكررة

فجنّب القوم سجنا فى التوابيت

فيحار الجماعة ، ولايدرون بماذا يجيبون . ولكنهم حريصون على إقامة التابوت ، وعلى تمجيد الرجل وتشريف مدفنه وتشريف ذكره ، وسيكون بينهم ولا ريب أناس ممن عركوا السياسة وحذقوا أساليب الخطاب والتدرج فى المجاملة والارضاء ، فيقول قائل منهم : أيابى مولانا الكرامة والتشريف !

فيجيب الشيخ :

لاتكرموا جسدى إذا ماحل بى

ريب المنون فلا فضيلة للجسد

ثم يقول :

إذا أنا وارانى التراب نخلنى

وما أنا فيه ، فالتراب مؤنتى !

ثم يقول كما قال من قبل :

أأرغب فى الصيت بين الأنا

م ، وكم خمل النابه الصيّت

وحسب الفتى انه مائت

وهل يعرف الشرف الميت ؟

فيُلهم أحدهم أن يراجعه ببيت من كلامه ، وأن يذكره أنه ليس بميت وإنما هو حى خالد ، أو ليس هو القائل :

وجدت الناس ميتا مثل حى

بحسن الذكر أو حياً كميت

فيأنس أبو العلاء إلى ما سمع ، ويعجبه أن يُروَى له شعره بعد مئات السنين ، ويسألهم : وما تريدون الآن من جمع الجموع حول هذا التابوت الذى تبنونه ؟ أتراكم تمدحوننى وأنا القائل :

إن مدحونى ساءنى مدحهم

وخلت انى فى الثرى سُخت ؟

فيجيبه أريب كيس من القوم يعرف كيف يتسلل إلى كمين الرضى من سريرة الشيخ ، ويقول له : بل نثنى على أنفسنا وعلى بلادنا بما أنجبتْ من فضلك وأحيت من ذكرك وحفظت من أثرك ، فانما يعيبنا ولا يعيبك أن ننسى هذا وتمادى فى نسيانه ، ولن يضيرك أن نكف عن مديحك وأنت القائل عرفانا بقدرك :

فلا وأبيك ما أخشى انتقاصا

ولا وأبيك ما أرجو ازديادا

ولكنه يضيرنا كل الضير أن يثنىَ عليك الغرباء ونحن سكوت ، وأن نمدح الناس من ملل الأرض حكماءهم وشعراءهم ولا نمدحك ونشيد بمناقبك وسجاياك .

وكأنما يطلق ألسنتهم اصغاء الشيخ وارتياحه وما يعهدونه فيه من حب الصراحة والفكاهة فيقول منهم قائل : ثم ماذا يخيفك اليوم من المديح وقصاراك من خوفه أن تحسب أنك سخت فى باطن الأرض ؟؟ لقد أصبح الخيال حقاً والحسبان واقعا ، وجربت بطن الثرى مئات السنين فلا ضير عليك اليوم أن تسمع من المديح الدواوين والأسفار !

فيضحك الشيخ ويتفتح للحديث ويجري معهم فى مجراهم فيقول : لا يغرنكم يا أبنائى أننى أزهد فى المديح وأننى أسكن إلى الزهد فيه وفى المجد والسلطان ، فما أبرىء نفسى من كبرياء ، وما أزعم أننى اخترت العزلة والفاقة عن صغر فى المطامع أو قناعة بالحظ الوضيع . ولكننى لا أرى لأحد عيشا فى هذه الدنيا إلا أن يسودها أو يستخف بها ويعرض عنها :

ذر الدنيا إذا لم تحظ منها
وكن فيها كثيرا أو قليلا
وأصبحْ واحد الرجين : إما
مليكا فى المعاشر أو أبيلا

وما أتيح لى أن أصبح مليكا فى المعاشر ، فأصبحت باختياري راهبا متبتلا أعرض عن الدنيا ولا أريها أنها هى التى أعرضت عنى وبخست من حقى !

إذا كان هذا الترب يجمع بيننا
فأهل الرزايا مثل أهل الممالك

فيقول قائل منهم : نعم أيها الامام . لقد كررناك حتى فهمناك كما قلت فى بعض شعرك

يكررنى ليفهمنى رجال
كما كررت معنى مستعادا

فما تخفى علينا خافية من هواجس ضميرك ولا تغيب

عنا خالجة من خوالج طبعك ، وإنك لمناضل مكبوح ومغامر محبوس ، وأن نفس الزاهد منك لمقرونة بنفس السيد الذى لا يدين فى الحياة لغير حكمه ، ويأنف أن يموت حتف أنفه ، وقد عشت هكذا فى عالم الرأى آمراً لا يأمرك الحاكمون ، وأبياً لا يخضعك المغلبون ، وتمنيت يوماً :

من السعد فى دنياك أن يهلك الفتى
بهيجاء يغشى أهلُها الطعنَ والضربا

فإنَّ قبيحاً بالمسوّد ضجعة
على فرشه يشكو إلى النفَر الكربا

وترددت بين القلم والسيف فقلت :

وإن العز فى رمح وترس
لأظهر منه فى قلم ودَرج

وما أختار أنى الملكُ يُجبى
إلىَّ المال من مكس وخرج

فدع الفيك من عرب وعجم

إلى حلفيك من قَتَب (١) وسرج

سراجك فى الدجنّة عين ضار

وإلا فالكواكب خير سرج

ويقول الشيخ مبتسما : لقد أحصيتم علىّ فلتات اللسان وشوارد الأمانى وشطحات الأوهام ، وعملتم بوصيتى حين قلت :

اقرأ كلامى إذا ما ضمنى جدثى

فإنه لك ممن قاله خلف

ولكنى كنت أوثر لو نسيتم بعضه ومنه هذا الذى ذكرتموه ، فما أحسب إلا أننى حاذفه من جملة كلامى لو تمكنت من تلك الأوراق التى حفظتموه فيها . فاحذفوه !

---

(١) القتب : الرحل

ثم يخطر لبعض الحاضرين أنها فرصة لا تُضيّع ، فيسألونه : ألانحمل إليك تلك الأوراق فنراجعك فيما تغير منها وما تأمر بمحوه ، بعد أن تنظر فى الدنيا نظرة وتطلع منها على ما استجد من حالها وتبدل من خلائق أهلها .

فاذا الشيخ يتجهم هنيهة وقد عاودته سوداؤه وانقباض صدره وذهب يقول :

أما خلائق أهل الدنيا فانما يتبدل الرأى فيها لمن يراهم على إحدى حالتين :

فمن قال إنهم كانوا فى غابر زمانهم أهل ورع وصلاح وأصحاب كرم وتقوى . ثم عدت عليهم عوادى الزمن فصدوا عن سبيل الخير ، فذلك خليق أن يصف منهم شأنا ، ثم يعود بهم إلى شأن غير الذى وصف .

ومن قال إنهم اليوم جاهلون وغداً يعلمون ، وأنهم

اليوم على عوج وغداً يستقيمون ، فذلك أيضاً خليق
بتبديل الرأى فى الناس عصراً بعد عصر وأمة بعد أمة .

وما أنا وهذا أو ذاك ؟ أنا قد بلوتهم فعلمت أنهم
هكذا كانوا منذ كانوا .

وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطروا
فلا يظن جهول أنهم فسدوا

ثم بلوتهم ورجوت صلاحهم واستأنفت الرجاء
فيهم وعجبت من أمرى معهم على شدة علمى بهم ومازلت
أستغرب من تلك الحال التى أحاولها وتحاولنى :

واعجب منى كيف أخطىء دائما
على أننى من أعرف الناس بالناس

حتى انتهيت إلى رأى لا يتبدل :

فلا تأمل من الدنيا صلاحا
فذاك هو الذى لايستطاع

نعم ذاك الذى ما استطعته ولن تستطيعوه ، ولكن

نزول كما زال آباؤنا
ويبقى الزمان على ما ترى

وتذهبون فى كل مذهب وتطمعون فى كل مطمع ، ثم تعلمون بعد خطأ لا تزالون ترجعون إليه أنه

حكم جرى للمليك فينا
ونحن فى الأصل أغبياء ! !

فهو داء عياء ليس له شفاء ، وكنت أزعم أن الموت يبرىء الخلائق منه فها أنا ذا معكم لم أكد أشعر بظل الحياة حتى استرجعت من دائها كل ما كنت أشكوه وأعالجه وأرجو الغلبة عليه .... كلا يا أبنائى : لا تحذفوا حرفا مما كتبت فى خلائق الناس ، أو احذفوه كله فما هو بضائركم أن تجهلوه ، وهو منا ومنكم فى الصميم ، وأنه لباق فى النفوس إن زال من الطروس .

تمثلت هذا الحديث بين شيخ المعرة و بعثة الحكومة السورية إليـه ، وأخال أننى على صواب حين أزعم أن الشيخ فى طليعة الحكماء الذين لا يغيرون ما قالوه فى هذا المعنى بعد آلاف السنين ، لأنه لم يؤمن بالنكسة بعـد العلاج ، ولم يؤمن بالتقدم والارتقاء ، فيتطرق الخلاف من أحد البابين إلى مجمل ما قال .

لكن شيمة واحدة فى حكيم المعرة إخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف إلى الياء ، ولألغى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات ، ولخرج بديوان يقرأه القارىء فلا يهجس فى خاطره ذكر المعرى المعهود ، لأن تغيير تلك الشيمة يخرجه خلقاً جديداً لا يمت بقرابة ذهن ولا بآصرة نسب إلى ذلك الحكيم الذى عرفناه .

وموعدنا بالكلام على شيمته تلك مقال قال .

صاحِب الجلالة المِصرّي !

× قلت فى ختام المقال السابق : « ان شيمةً واحدة فى حكيم المعرة أخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف إلى الياء ، ولألغى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات . . . »

فما هى تلك الشيمة ؟

هى السمت والوقار ، أو هى كما نقول فى لغة العصر الحاضر أدب البيئة وأصول « اللياقة » ×

وهذه الشيمة فى الواقع وازع قوى عظيم الهيمنة على جميع النفوس ، وان عدها بعضهم ثانية أو ثالثة أو رابعة فى ترتيب الزواجر الأخلاقية والنفعية ، لاعتقادهم

إن الزواجر إنما تفعل فى الطباع فعلها على مقدار ما يحيط بها من ضجيج وطنين ، أو على مقدار ما لها من أسماء وعناوين ، لا على مقدار بواعثها من الطبع ومن قوانين الاجتماع .

إن جميع الزواجر والأوامر والنواهى لا تُخرج دانقاً ولا سحتوتا من كنز المرأة العجوز الذى تجمعه من الدوانيق والسحاتيت ، ليكون لها بعد وفاتها مشهد « يليق » ويجري مع العرف الشائع بين البيوت .

وان الرجل ليقدم على جميع المحظورات غير حافل بالعقاب أو سوء المآب ، حاشا المحظور الذى « يسقطه » فى نظر الناس ويخل بقواعد المروءة فى البيئة التى هو منها ، فذلك حد لا يتخطاه إلا وقد تخطى قبله جميع الحدود واجترأ على جميع المنكرات

وإن الخمر والزنا والسرقة ، لفى درجة واحدة من

التحريم فى بعض الشرائع السماوية ، ولكن الناس يجانبونها أو يستبيحونها على حسب نصيبها من الزراية فى البيئات التى يعيشون بينها ، ونعنى بها بيئة المعيشة وبيئة المعاشرة وبيئة التفكير ، وربما وجد من الناس من يباهى ببعض تلك المحظورات فى بعض بيئاته ، وإن كانت فى بيئات أخرى مجلبة العار والمذمة والنفور

وربما استخف المرء أو المرأة بكل منكور وممنوع إلا أن يزف بنته أو بنتها مثلا فى شوار أقل من الشوار المصطلح عليه ، مع أنه غير ممنوع فى دين ولا فى قانون ولا فى شرع معقول ، ولكنه ممنوع فى أدب البيئة أو أدب اللياقة ، فهو إذن أصعب الممنوعات .

والخلاعة هى غاية السقوط عند العرب أو عند المتكلمين باللغة العربية ، وإنما الأصل فى الخليع أنه الرجل الذى يخلعه أهله ويبرأون منه ، فهو مِنْ ثَمَّ يجاب على

نفسه أكبر العار ، وإن لم يقارف شيئا من معاصى الدين والقانون على حسب العرف الحديث

وانهم ليجدون متسعاً من القول فى كل عاص ، وكل جارم ، وكل آثم إلا الخليع فلامتسع فيه من القول بعد الخلاعة . . . وماعسى أن يقول القائل فى خليع ؟؟ تلك غاية الغايات وقصارى الموبقات ، فلا ملامة ولا عتاب !

* المعرى مثل من الأمثلة البالغة على سلطان البيئة أو على سلطان أدب (اللياقة) وأدب العرف والتقاليد

فهذ الحكيم الذى عرض على فكره كلّ أصل من أصول الحكمة وكل مذهب من مذاهب الدين ، فلم يقبل منها إلا ما ارتضاه برهانه ، ولم يتخذ له إماما غير العقل فى صبحه ومسائه ، هو بعد هذا كله أسير « أدب اللياقة » يمنعه هذا الأدب ما ليس يمنعه شرع ولا فلسفة ولا عقيدة *

وهذا القائل

وسيان من أمه حرة

حصان ومن أمه زانية !

هو هو الذي يأبى أن يدخل الوليد عَلَى النساء بعد بلوغه العاشرة ، ويأبى أن تذهب المرأة إلى الحمام ، ويخشى على عرضها أن تخرج إلى الحج ، فلا يعده فريضة على عجز النساء ولا العذاري ! *

ذلك هو «السمت اللائق» بالمرأة فى شريعة البيئة ... فالسيدة الحصان تنجبها الأسرة الوقور لن تكون إلا على هذه الصفة ، ومتى وصلنا إلى السمت اللائق أو إلى أدب اللياقة فأبو العلاء وسائر أبناء البيئة سواء ، والفيلسوف الذى قال :

كذب الظن لا أمام سوى العـ

ـقل مقيما فى صبحه والمساء

لا يعنيه من أمامة العقل هنا إلا ما يعنى قعائد البيوت وعجائز الأمهات والجدات ، ذوات البنات اللائى يلتمسن الأزواج فى ستر وحشمة وصيان !

ولعلنا تسهلنا بعض التسهل إذ قلنا : ان أبا العلاء وسائر أبناء البيئة سواء ، فانه لأشد تحرجا من كثيرين ، وانه ليحظر على نفسه ما يبيحه آخرون ، وانه ليحسب الوقار جمالا لا يدانيه جمال فى الرجال ، فان حذر من الشيخوخة آفة فانما يحذر أن يدركه الخرف :

وما أتوقّى والخطوبُ كثيرة
من الدهر إلا أن يحل بى الهِتْر

وإذا رثى أباه فى صباه وهو يتخيل موقف الحشر ورهبة القيامة وزحام العطاشى على الحوض فليس ينسى أن يسأل عن ذلك الأب :

ألا ليت شعرى هل يخف وقاره
إذا صار أحد فى القيامة كالعهن

وهل يرد الحوض الروىّ مبادراً
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى ؟

فكأنه يقف بالدين والفلسفة عند باب العقل ، ثم يقف بالعقل عند باب الوقار أو أدب اللياقة ، ثم لا يسأل هذا السلطان الجائر سؤالا واحداً من تلك الأسئلة التى كان يشنها من كل جانب على جميع السلاطين وجميع الدولات وجميع الأحكام ، ولو أنه سأل وأباح نفسه الجواب الصريح لما أخذها بكل تلك الصرامة ولا أحال عليها كل تلك القيود

أما مرجع ذلك السلطان الجائر من حياة أبى العلاء فهو أسباب كثيرة وليس بسبب واحد :

١ - مرجعه إلى تربية الأسرة فقد كان أبوه وأمه من ذوى الوجاهة والصلاح وكان آل أبيه يتوارثون القضاء فى بلده ويعيشون بين الناس كما يعيش رجال الدين

ورجال الحكم على شعائر المروءة والتعفف والأنفة من غشيان مواقع الشبهات ، وعلى الهيبة التى لا غنى عنها لمن يسوسون الرعية باسم الله واسم السلطان

٢ - ومرجعه إلى الخليقة العربية فقد كان أبو العلاء عربىّ النَّجْر عربىّ الطبيعة يفهم أن العِرْض قوام الشرف والعزة ، وأن الابتذال هو الهوان الذى ما بعده هوان ، وأن الرجل الذى يجترىء عليه المجترىء بمذمة أو سخرية هو حمى مستباح ، وأن من لا حياء له لا حياة له ولا خير فيه ، وأن السنة ما سنه الآباء وجرى عليه العرف وسارت به الأمثال وحسنت به القدوة

٣ - ومرجعه إلى فقد بصره ، فان الضرير قد يصيبه السخر والملام لأمور يواقعها البصير ولا من يسخر به أو يلومه ، وأن البصير قد يمارس من الشهوات ما يأمن الفضيحة فيه لأمانه من أن يطلع عليه أحد غيره ، وليس

ذلك فى مقدور الضرير: فأَما الفضيحة والعار وأما الزهد والوقار

٤ - ومرجعه الى كبريائه وعزة نفسه، فان الأعمى قد تهون عليه الفضيحة فى سبيل الشهوة، إلا أن تكون له كبرياء تأبى له المهانة والابتذال، فعند ذلك يوازن بين مايكسب بالشهوة وبين مايخسر بالابتذال، فيهون عليه فقد الشهوات واقتناء الكرامة.

ولقد رأينا أن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا إلا بالسيادة عليها أو بالاعراض عنها، فأما الملك وأما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين

فلا يحسبن أحد أن «فكرة الملك» عارضة فى ذهنه كما يعرض الخاطر فى خلد الشاعر، فان «للمجد الدنيوى» لنزعة مكبوتة فى قرارة ضميره يدل عليها شعره ونثره، ولا تزال غالبة عليه فى جمحات الأهواء وفلتات اللسان.

فسرعان ما يثب اليها كلما عرضت لها لمحة ظهور ، وله
فى ذلك أبيات تعد بالعشرات منها :

لا ملك لى وأرى الدنيا تحاصرنى
وما حججت وقد لاقيت احصارا

ومنها :

ماسرنى بقناعة أوتيتها
فى العيش ملكا غالبٍ وذمار

ومنها :

لو شاء ربى لصاغنى ملكاً
أو ملكا ... ليس يعجز القدر !

ومنها :

وزهدنى فى هضبة المجد خبرتى
بأن قرارات الرجال وهود

ومنها :

لا كانت الدنيا فليس يسرنى

انى خليفتها ولا محمودها

ومنها :

محمودنا الله والمسعود خائفه

فعدِّ عن ذكر محمود ومسعود

ملكان لو أننى خيّرت ملكهما

وعود صلب ، أشار العقل بالعود

ومنها :

ماسرنى أنى إمام زمانه

تُلقى إلىّ من الأمور مقالد

ومنها :

أسر إن كنت محموداً على ضعتى

ولا أسر بأنى الملك محمود

وقد أعجبه أن يراه راء فى الكرى يلبس تاجاً فقال :

رآنى فى الكرى رجل كأنى

من الذهب اتخذت غشاء راسى

قلنسوة خصصت بها نضارا

كهرمز أو كملك أولى خراس

فقلت معبراً : ذهب ذهابى

وتلك نباهة لى فى اندراسى

ولعل الرائى هو أبو العلاء نفسه قد أظهر له المنام ما أخفاه العقل الباطن من نوازع الكبرياء ، أو لعله صاحب خبيث قد استطلع طلعه وعرف شموخ طبعه فرأى المنام حقاً أو لفقه له ليغنم رضاه

وكأنه لما فاته التاج وسوس له « عقله الباطن » فى المنام فرأى تلك الرؤيا ، ووسوس له فى اليقظة فقال فى المفاضلة بين تاج الملك وتاج الزاهد :

والتاج تقوى الله لا مارصعوا

ليكون زيناً للأمير الفاتح

وأمثال هذه الأبيات وعشرات مثلها لا تبدر من رجل يمزح حين يقول : كن فى الدنيا كثيراً أو قليلا ، فاما مليكا أو راهباً .. ثم تدركه الأنفة أن يأكل من رزق غيره مع الرهبانية فيقول :

ويعجبنى فعل الذين ترهبوا
سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

كلا . ذلك رجل قد تغلغلت الأنفة فى أعماق طبعه ، فما هى عنده كلمة مجاز أو كلمة مزاح أو شطحة خيال

تلك مراجع شتى لعادة السمت أو « أدب اللياقة » فى خلائق أبى العلاء ، ومرجع آخر نضيفه اليها ولا نحسبه قليل الأثر فى تكوين تلك العادة ، أنه كان ضعيف البنية ضعيف الخوالج الجسدية ... فلم تغلبه شهوات اللحم والدم ولم يعسر عليه ضبطها فى عنان السمت مدى تلك السنين الطوال

على هـذه المراجع جميعها قام « أدب اللياقة » فى خلائق أبى العلاء ، أو قامت تلك الشيمة التى قلنا إنها لو تغيرت قليلا لخرج أبو العلاء رجلا آخر ، من يقرأه لا يهجس فى خاطره ذكر المعرى المعهود ، وموعدنا المقال التالى بجواب سؤال السائلين : هل كان تغييرها من المستطاع ؟؟

وماذا كان المعري صانعاً لو قدر على تغييرها ؟؟

عالم السّريّة

* قلنا فى ختام مقالنا السابق أن الخصلة التى لو تغيرت فى أبى العلاء غيرت معيشته كلها أو غيرت مذهبه فى الحياة كله هي خصلة الوقار وكراهة السخر والمهانة أو هى خصلة «اللياقة» كما نسميها فى العصر الحديث

وقلنا ان هذه الخصلة مردودة فيه إلى مراجع كثيرة ، وهى التربية فى بيت العلم والوجاهة ، والسليقة العربية ، وفقد البصر ، والكبرياء ، وضعف البنية ضعفاً أتاح له أن يكبح نوازع اللحم والدم ويقمع دوافع الشهوات

وسألنا : هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة

وماذا كان المعرى صانعا لو أنها تغيرت بعض التغيير أو كل التغيير ؟

وعندنا أن تغييرها كان مستطاعا كما يستطاع كل تغيير فى عوارض الصفات

فان تلك المراجع التى أنشأت فيه حب الوقار ليس من شأنها أن تنزع بصاحبها إلى النسك والزهد فى الحياة إلا إذا اجتمعت فى وقت واحد . أما اذا افترقت ولو بعض الافتراق فليس النسك لصاحبها بلزام ، وليس حتما عليه أن يأنف من نعيم الحياة

إذ ليس كل من تربى فى بيت من بيوت العلم والدين والوجاهة بصادفٍ عن اللذات والشهوات ، أو بعا كف على الصوامع والدور التى يسميها المحابس ، والأمثلة فيما نراه وفيما نقرأه كثيرات

وليس كل عربى تمنعه صيانة العرض أن يعاقر الخمر

ويستطيب المجون ، فان امرأ القيس وطرفة والأعشى عرب فى الصميم من العروبة ، ومجونهم مع ذلك كمجون الشعراء من أبناء الأمم الأخرى فى عهود الجاهلية وعهود الأديان

وليس كل ضرير عازفا عن مواقع الشبهات ، فان بشاراً قد ولد ضريراً وانه لأسبق إلى الشبهات من المبصرين

وليس كل ضعيف البنيــــة معرضاً عن حظوظ الأقوياء والأشداء ، إذ ربما كان ضعف البنية سبباً إلى الافراط فى التماس تلك الحظوظ ، لأنه يضعف الارادة فلا تقوى على كبح سورات الطبع ووساوس الاغراء

وكذلك ليس المتكبر مترفعـا أبدا عن الطرب والسرور ؛ لأنه إذا كان بصيرا لم يكن فى طربه وسروره ما يجلب عليه السخر والمهانة ، أو يعرضه للتغامز والتقريع بل لعله يُرضى كبرياءه أحيانا من طريق غزوات الحب ومظاهر البذخ والثراء *

أما إذا اجتمعت هذه الأسباب كلها فمن الصعب أن يفلت الطبع الواحد من أوهاقها ، ومن الصعب أن يوفق بينها جميعاً إلا كما وفق بينها أبو العلاء ، أى باجتناب الدنيا والتزم العزلة والقناعة

لكن افتراقها كان ميسوراً لا استحالة فيه ، فلم يكن ضربة لازب أن يصاب أبو العلاء بالجدرى فى طفولته الباكرة ، ولم يكن ضربة لازب إذا أصيب به أن يفقد بصره وأن يعيش بعد ذلك رهن المحبسين .

وماذا يبقى من معيشة أبى العلاء أو من فلسفته فى المعيشة إذا لم يكن رهن المحبسين ؟

أكبر الظن فى هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والخيامية فى نمط واحد ، أو كان يخرج لنا نمطاً جديداً يضاف إلى نمط النواسى ونمط الخيام فى ديوان الآداب الشرقية ، ويكون لا ريب نمطاً بديعاً

خليقاً بذلك الذهن الوقاد وذلك الطبع الأصيل

وفى المعرى جميع العناصر التى تُخرج منه ذلك النمطَ البديع ، ونعنى به النمط الذى يذكّرك عمر الخيام أو يذكّرك الحسن بن هانىء قبل أن يذكرك أبا العلاء الذى عهدناه ودرسناه

عنده الشك فى أَخلاق الناس وعقائدهم فهو القائل :

ما فيهم بر ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب

وهو القائل :

توهمت يامغرور إنك ديّنٌ
علىّ يمين الله : مالك دين !

وهو القائل :

يحرم فيكم الصهباء صبحا
ويشربها على عمد مساء

وهو القائل :

وما يحجون من دين ولا نسك

وإنما ذاك أفراط من الأشَر

وهو القائل وفيه كل سخره بخلائق الناس

وخلائق نفسه :

عرفتك فاعلم إن ذممتَ خلائقى

ورابك بعضى : أن كلك رائبى !

وعنده الرغبة فى الحياة والشغف بمتاع الدنيا ،

وكلامه فى ذلك كثير . منه قوله :

تناهبت العيش النفوس بغرة

فان كنت تستطيع النِّهاب فناهبِ

ومنه قوله :

والمرء ليس بزاهد فى غادة

لكنه يترقب الا مكانا

ومنه قوله وهو أصرح مما تقدم :

ولم أعرض عن اللذات إلا

لأن خيارها عنى خنسنه

وعنده الشك فى عقبي النفس وما يستتبعه ذلك الشك من قلة المبالاة والمساواة بين المحامد والمثالب ، ولعل أوجز كلامه فى هذا المعنى قوله :

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى

فان كان حقا فالنجاسة كالطهر

أما الخمر فلا استبعد أن الشيخ قد ذاقها فى بعض الأديرة التى كان يغشاها للدرس ومراجعة المذاهب ، فان أوصافه لها أوصاف من لا يقتصر فى العلم بها على السماع

بل لا أستبعد أنه كان يذوقها من حين إلى حين فى بعض أيام العزلة كما ينم عليه قوله :

فلا تشربنها ما حييت ، وان تمل

إلى الغىّ فاشربها بغير نديم

وإنك لتقرأ نهيه الكثير عن الخمر فتلمس فيه نزاعا شديداً إليها يغالبه ويعاوده فى معظم أيامه كما يؤخذ من قوله :

أيأتى نبىٌّ يجعل الخمر طلقة

فتحمل شيئاً من همومى وأحزانى

وهيهات لو حلت لما كنت شاربا

مخففة فى الحلم كفة ميزانى

أو من قوله :

لو كانت الخمر حلا ما سمحت بها

لنفسىَ الدهر لا سراً ولا علنا

أو من قوله :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها

بالعقل أفضل أنصارى وأعوانى

أو من قوله :

لو كان قدساً [١] ثم هبت ريحها

بهضابه لم يبق فيه وقار

لو يحمل الشَّرب الرواسى أُوهموا

ان ليس فوق ظهورهم أوقار

أو من قوله :

وما قصرت لى أم ليلى بشربها

حنادس أوقات على طيال

أو من قوله :

لا ينزلن بانطاكيةٍ ورع

كم حلل الدين عقد للزنانير

بها مدام كذوب التبر تمزجه

للشاربين وجوه كالدنانير

(١) إسم جبل

أو من قوله :

لقد خدعتنى «أم دفر»[١] وأصبحت

مؤيدة من أم ليلى بسلطان

إذا أخذت قسطاً من العقل هذه

فتلك لها فى ضلة المرء قسطان

أو من قوله :

لا أشرب الراح ولو ضُمِّنَتْ

ذهاب لوعاتى وأحزانى

مخففاً ميزان حلمى بها

كأننى ما خف ميزانى !

إلى أضعاف هذه الأقوال وما شاكلها فى اللزوميات خاصة ، وهى من بعض الوجوه أشبه الأشياء بمفكراته الشخصية ، وهذا عدا ماجاء فى رسالة الغفران من وصف مجالس الشراب ولذات الشاربين فى الدنيا والآخرة .

(١) كناية عن الدنيا

فان لم يكن فى كل ما تقدم دلالة على ان الشيخ قد ذاق الخمرة وعاد إلي مذاقها بعدلزوم المحبسين ففيه دلالة على اشتهائها ومغالبة نفسه عليها ، مغالبةً ليس بالهين نسيانها وصرفها من ذهنه وهواجس ضميره .

ويرجِّح الظنّ بنزوع المعرى هذه النزعة بين الخيامية والنواسية انه كان يعيش فى عصر فتنة واضطراب وجزع على الأنفس والاعراض ، وتلك عصور يشيع فيها الفساد وتندر فيها العصمة ويكثر فيها اغتنام الفرص والتهافت على اللذات ، ولا سيما على ملتقى الطريق بين حضارة الروم وحضارة العرب وحضارة الفرس ، وكلها فى ذلك العهد حضارات أخذت فى الزوال ولم تستبق من المناعة والتماسك مايزجر النفوس ويعصم الأخلاق ويحي شرائع الآداب .

لكنْ لماذا نقول الخيامية والنواسية ونفرق بين

الطريقين وكلا الرجلين — الخيام وأبو نواس — معاقر كأس مقبلٌ على متعة ، مستخف بالذم والثناء ؟

نقول ذلك لأنهما على اتفاقهما فى العمل مختلفان فى أسبابه ودواعيه وغاياته .

فالخيام يشرب وينعم لأنه عالج مشكلات الوجود فاستعصى عليه حلها فقنع بالساعة التى هو فيها وعمد إلى الكأس يغرق فيها شكوكه وأسفه على بطلان الحياة وعاقبة الحياة .

أما أبو نواس فلا شكوك عنده ولا مشكلات ، وإنما هو شارب خمر لأنه يشتهيها ويتصدى لعقاب الآخرة فى سبيلها ، فالآخرة عنده حقيقة مفروغ منها وليست قضية فى طريق الحل والجلاء ، كما كانت فى مذهب عمر الخيام .

أما أبو العلاء فهو قريب من أبى نواس فى الثقافة

العربية وقريب من الخيام فى التفكير والبحث عن أصول الأشياء ، فهو لا يكون كهذا ولا كذاك حين يستسلم لمتاع الحياة ، ولكنه يكون نمطاً وحده يأخذ من كليهما بما هو قريب اليه ، وقد يترجم هذا النمط بعض الترجمة قوله :

السيف والرمح قد أودى زمانهما
فهل لكفك فى عود ومضراب ؟ ×

إلا اننا نسأل ويحق لنا السؤال : هل كان حتما لزاما على المعرى إذا هو سلم من الجدرى وعاش بصيراً بين أهل زمانه أن يدرس الدراسة التى تشككه وتدفع به إلى البحث فى أصول الأشياء ؟ ألم يكن من الجائز أن استغراقه فى الدراسة إنما كان نتيجة لفقد بصره وانصرافه عن الدراسات الأخرى التى يشتغل بها طلاب المناصب والمساعى الدنيوية ؟ ألم يكن من الجائز أن

يدرس — وهو طفل بصير — تلك الدروس التي ترشحه للقضاء كما رشحت بعض أهله من قبله ؟ ألم يكن من الجائز إذا علّمه أهله ليرشحوه لوظيفة القضاء أن يكتفي بدروسه الفقهية ولا يسترسل في دروس الحكمة والفلسفه وشكوك الأديان ؟ ؟

كل ذلك مما يجوز ، وقد ذكر هو المراتب والتطلع اليها في مواضع من شعره ، وذكر الفتيا فقال :

قلّدتني الفتيا فتوّجني غداً
تاجا باعفائي من التقليد

وقال يخاطب أبناء بلده :

يا قوم لو كنت أميراً لكم
ذممتم في الغيب ذاك الأمير

فاذا قنع الطفل أبو العلاء بدروس الوظائف والمساعي الدنيوية فربما ولي القضاء وعاش عيشة القضاة في زمانه

فلا يطيل الدرس ولا يتشعب فى مناحيه بعيداً من فقه الدين وفتاوى القضايا الشرعية ، وإذا تمادى به البحث مرة ودعاه إلى ذلك بعض ما يسمع ويرى من حوله فما هى إلا خطرة عارضة ، لا تلبث أن تذهب كما جاءت أو تنطوى فى خبايا النفس مزويةً عن الأسماع والأبصار

لقد كان إذن يجد الوظيفة والبصر ولكنه يعيش بعد موته فى ظلام التاريخ .

لقد كان يعيش إذن جاهلا حقيقة نفسه ويموت مجهولا بين عارفيه منذ قضى نحبه إلى أن يشاء الله

وسنسأل أبا العلاء فى المقال التالى أى الحظوظ يختار .

أبو العلاء هو أبو العلاء

قال الرسول :

ألم يجمع شيخنا العظيم رأيا فيما اختار من تلك الشخوص ؟

قال أبو العلاء :

شيخنا العظيم قد اختار وفرغ من اختياره

قال الرسول :

أفيأذن مولاى أن أسأله عما اختار منها ؟

قال أبو العلاء :

بل هو يسألك ماذا أنت مختارٌ له من تلك الشخوص ، فلعله يهتدى منك بهدى فيما يؤثره لنفسه

من شكول حياته وأحوال وجوده

قال الرسول :

عفوك اللهم وغفرانك ! أفمثلى يهدى أبا العلاء ؟ وفيم أهديه تعاليت ربى وتباركت ؟ فيما يأخذ من شأنه وفيما يدع ، وفيما يؤثر لنفسه وفيما يأبى ! ! ماذا أسمع منك مولاى ! وهل بلغ من قدرى أن أصبح هدفا لسخرك إن كنت ساخراً ، وغرضا للتهكم منك إن طاب لك أن ترجع إلى تهكمك القديم ؟

قال أبو العلاء :

ولا كل هذا يابنى . . . ما أنا بساخر منك ولا متهكم ، وإنما يعجز الانسان غاية العجز حين يختار لنفسه ، ويقدر غاية القدرة حين يختار لغيره ، وليس صاحب الحكمة بدعا فى هذه السنة التى شملت أبناء آدم وحواء ، بل لعل الحيرة أعظم والتردد ألزم حين يختار

الحكيم وينظر فى مختلف الشئون قياساً على كثرة مايرى وكثرة ما يستوعب من المزايا والنقائص ، وكثرة ما يعلم للمسألة الواحدة من وجوه وأطوار . فلا جرم تكون أهلا للسؤال الذى سألتك وأنا أحوج إلى جوابه منك إلى جوابى ، فانما أنظر إلى شخوصى كما ينظر الأب إلى أبنائه فلا أدرى من منهم الأثير الراجح ومن منهم المزوى المرجوح . وأنا بعدُ صاحب الاختيار ومن يقع عليه الاختيار ، وأنا بعد الشاهد والمشهود عليه ، فما بالك تستغرب منى أن آنس إلى خاطر يخطر لك أو ظن يحوم فى خلدك . . . قل يا بنى ولا حرج عليك من حكمة حكيمك العظيم كما تدعوه . ما أنت بجاهل وما أنا بعليم .

وما العلماء والجهال إلا

قريب حين تنظر من قريب

قال الرسول وهو مأخوذ :

ذلك علم أستفيده منك اذ أنت تنكر العلم يامولاى على نفسك ، وقصاراى أن أسألك عن شخص شخص من شخوصك التى تعرض عليك ، وأن تقول لى ماتحمده منها وما ليس عندك بحميد ، وأنا الرابح بما أسمع ، وان لم يبلغ من رأيي أن يضاهي رأى الشيخ فيما يريده وما يأباه .

قال أبو العلاء :

قل على بركة الله

قال الرسول :

ذلك قاضى قضاة المعرة أول تلك الشخوص ، أتمثله سيداً جليلا ينظر إلى الدنيا وتنظر الدنيا اليه ، وينعم بنصيب من الحياة يعلن منه مايعلن ويبطن منه مايبطن ، ويسأله الناس فى العلم والدين ، ويقصده القاصدون فيما

يشكل عليهم من قضايا الفكر ، وقضايا المصالح والحاجات ...

ومضى الرسول يطنب في مآثر قاضي القضاة وهو ينظر إلى وجه أبي العلاء ، فيراه يبتسم ويصغي في غير قليل من الرحمة والحدب ، وغير قليل من العجب والاستجهال ، ويتأنى الرسول في كلامه ويكفكف بعض الشيء من أطنابه وغلوائه ، فيعمد الشيخ إلى الكلام كمن لا ينشط اليه ، ويقول للرسول سائلا :

في أقاليم الهند والصين ألوف وألوف من أجيال البشر الأحياء في هذا الزمان ، أفتراني لو عدمت الحياة أحسب نفسي حياً لأنهم أحياء ، وأزعم انني أعيش لأنهم يعيشون ؟

قال الرسول :

كلا يامولاي ، فان لهم حياتهم وللشيخ حياته ،

ولهم أعمارهم المعدودة وللشيخ عمره المعدود

قال شيخ المعرة :

فتح الله عليك . فما أنا وذلك القاضى الذى وصفت ؟

وما نصيبي من الحياة ان عاش هو وسمى نفسه أبا العلاء ؟

هو رجل من أهل الصين ما سمعنا به فى الأولين !

× إنما أبو العلاء أبو العلاء حين يمعن فى اغوار ضميره فيلمح هناك هواجس قلبه وشكوك عقله ، ومادة علمه واختباره وآثار نعمته وحرمانه ، وما حصّل أو ضيع من أحلامه وأشجانه ، وغاية ما ينتهى من ظنه أو يقينه ، فما أنا وقاضى قضاتك يا بنى ؟ ذره وما اختاره يعيش كما اختار له أمراؤه وطلاب عدله وانصافه ، فان الصلة بينى وبينه كما قلت لك كالصلة بينى وبين ألوف ممن عاشوا أو يعيشون فى أرجاء الهند والصين ، فما اجتاز صاحبنا

من حقيقة أبي العلاء عتبة الدار ، ولا صعد منها إلى ذروة ولا هبط إلى قرار .

قال الرسول :

فما قول شيخنا أفاده الله فى الشاعر النّواسى يحيا حياته وينعم نعيمه ، ويرتع فى لذات العيش كما رتع ، وينظم الشعر كما نظم ، ولا يحرم الشهرة بعد زمانه ، ولا الحظوة بين معاصريه وأقرانه

قال أبو العلاء متهانفاً مستكرها :

لو سرنى أن أعيش عيشه لسرنى أن أخلد خلوده وأن أشتهر اشتهاره فى زمانه وبعد زمانه : ذاك نديم يا بنى وتلك غاية مُرتقاه ، فكيف ترانى أوثر مكان النديم ومِن فوقه مكان من ينادمه ويرجو مسرته ويبتغى صلاته وعطاياه ؟

رحم الله ابن هانىء ، ما اقترب من الأفق إلا حين قال :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت

له عن عدو فى ثياب صديق

ثم أبى أن يمتحنها وامتحنتها أنا فى كل يوم ، وشرب من يدها الخمر لذة للشاربين وكرهت أنا أن أقبل الضيافة من عدو بغيض ، ولو لقيته لسألته : مابالك لم تمتحنها يرحمك الله وتركتها محنة لك لاتألوك امتحانا فى ليل ولا نهار ؟

خذه يابنى إلى جانب قاضيك فما كان لى من أرب فى هذا ولاذاك

فوجم الرسول التلميذ هنيهة ، ثم قال وهو يقدم ويحجم : هل أسأل الشيخ عن الفارسى عمر الخيام ؟

فهش أبو العلاء وقال نعم تسأل ، فماذا تخالنى مجيباً إن سألت عنه ؟

قال التلميذ : أحسب أننى فطنت لاختيار أستاذنا

من تلك الشخوص التي عرضت عليه

إن أستاذنا ليختار الفيلسوف الفارسي وأنه ليرضى عن بحثه وزهده ، وأنه ليقنع كما قنع برغيفه وقدحه وحبيبه ، وإنه لينظر بعد ذلك في السماوات والأرضين بعلم المنجم وخبرة الحكيم ، وإنه ليتبوأ من سيرة الخلف بعد زمانه مكان الهداية والتعليم ، لا مكان السمير والنديم !

فبدأ على وجه الحكيم الضرير قطوب يسير ، ولكنه قطوب الروية والمراجعة لا قطوب الكدر والانقباض ، وهمس بين شفتيه كأنه في حديث نجوى :

أتراني أكون نسخة منقولة من أحد كائناً ما كان ؟

ثم جهر قائلا :

كلا يابني ! لقد كنت أختاره لو أنني خُيرت فيه

قبل ميلادى وميلاده ، أما اليوم فمالى فى هـذا الشبه من أرب : رضى الله عنه فهو أقرب من آثرت وأصعب من أبيت

ثم عاد يقول :

لئن حظى بلذة التعاطى لما حظى بقوة الامتناع ... ولئن سكر بخمر الدعة لما سكر بخمر الأنفة ، ولئن جرب اتباع الدنيا خطوة واحدة لما جرب الاعراض عنها خطوات : له طريق ولى طريق ، وربما التقينا فى بعض الطريق !

ثم صاح الشيخ بتلميذه ورسول القوم اليه :

ما بالك يابنى ترضى لى كل صورة إلا الصورة التى رضيتنى من أجلها ؟

قال التلميذ : تعنى يا مولاى صورة أبى العلاء ؟

قال الشيخ : نعم . إياها أعنى ولا أعنى سواها

فعجب التلميذ عجباً لم يدر له منفذاً ولا منصرفا :
أيقضى الشيخ حياته فى التبرم والانكار ثم لا يختار
حين يختار إلا ما تبرم به وأغرق فى انكاره ؟

هذا والله لهو العجب العاجب والحيرة جد الحيرة
فى قضاء الناس مع الأقدار وقضاء الأقدار مع الناس

وكانما أدرك الشيخ ما يهجس به ضمير التلميذ فقال
له : تراه عجيباً ؟ أليس كذلك ؟

قال التلميذ لا أكتمك عجبي فأنت به أعلم ، وما
أدرى كيف شكوت الدنيا ثم كيف تختار اليوم ما كنت
تشكوه ؟

قال : أضرب لك مثلا ، فانما بالأمثال تنجلى
المشكلات والمشابهات

هبك خرجت إلى العالم العريض الرحيب فجعلت
لا ترى مزية ولا حسناً ولا فضيلة فى أحد من الناس

إلا تمنيت ذلك لنفسك : هبك تمنيت من هذا عينيه ومن هـذا أنفه ومن هـذا لونه ومن هذا قوامه ومن هذا فكره ومن هذا عافيته ومن هذا أرزاقه وأمواله ، ومن هـذا ماضيه ، ومن هذا حاضره ومستقبله ومن هذا ملكة الشعر أو ملكة الغناء أو ملكة الحكم أو ملكة التدبير

وهبك جمعت هذا كله فى شخصك فأين تكون أنت بين جميع هذه الشخوص ؟

لا تجب فانى مغنيك يابنى عن الجواب : إنك يومئذ لا تكون

إنك تكون أنف زيد وعين بكر ولون خالد وسطوة فلان ومال آخرين ، ولكنك أنت لن تكون وأنت أنت الذى يعنيك أن تكون جميع هؤلاء ، وإذا

كنت جميع هؤلاء فلا أنت ولا هؤلاء كائنون

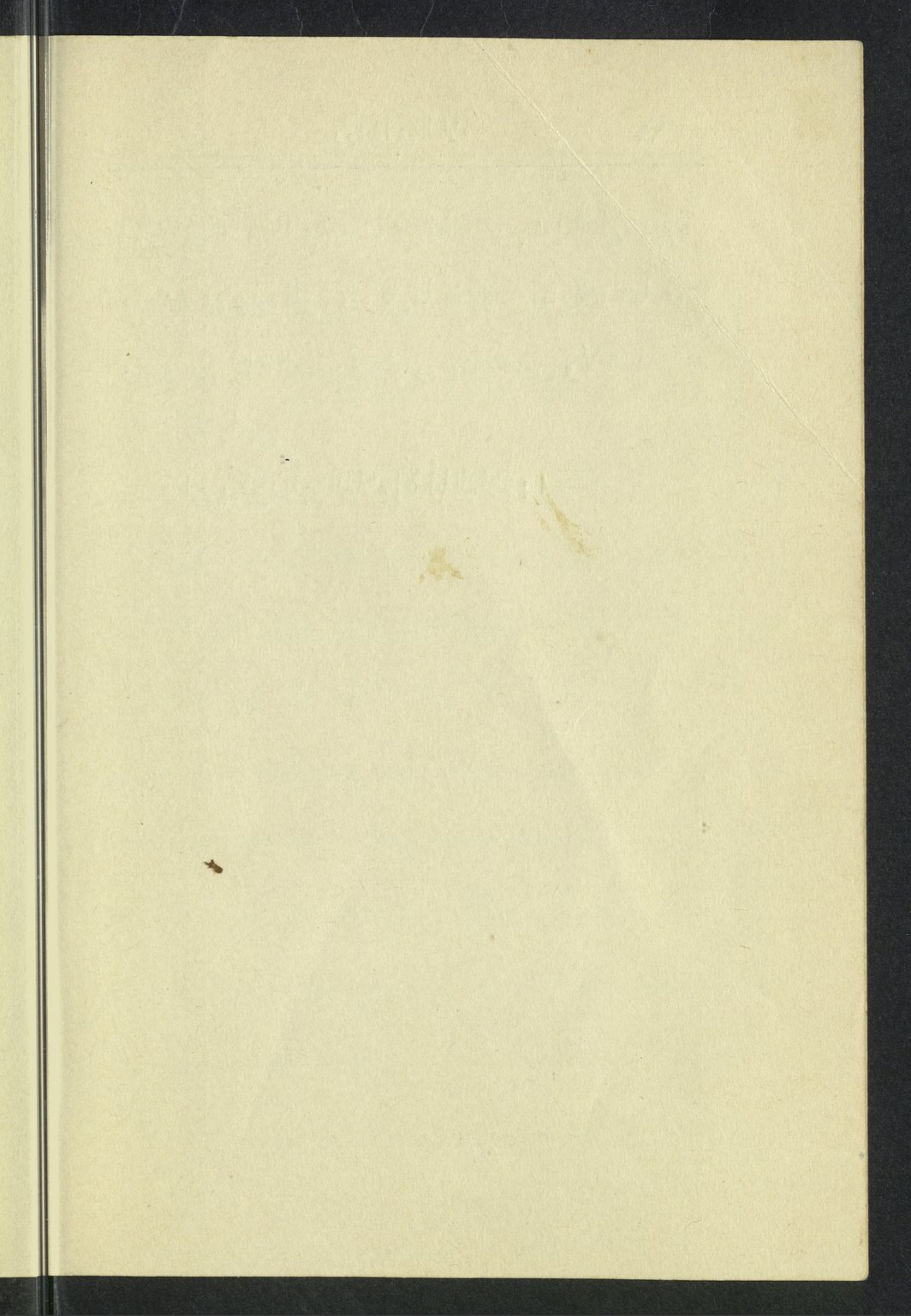
قال التلميذ : ألا يتسنى لى أن أحتفظ باساس وجوهر ثم أتعنى النوافل والعروض ؟

قال الشيخ : ذلك خطؤكم القديم . فما من عرض إلا وهو داخل فى صميم الجوهر ، وما من شرفة فى أعلى البناء إلا وللأساس منها عماد ، وان بصرى الذى فقدته لجزء من تكوينى لا أنزعه إلا انتزعت كلى معه فلم يبق لى ما أختار به ولا ما أختاره . ولقد يكون من عوارض الحياة مال يذهب ومال يجىء ، ودار تسكنها هنا ودار تسكنها هناك ، ولكنك إذا كسبت المال وفيك طبع الفقير فكأنما وقع الدرهم فى يمين غير يمينك ، وإذا سكنت الدار وخلفت فيها ذكريات شبابك فأنت ساكنها وإن تحولت منها إلى العدوة

الأخرى ، وإذا وجدت مرة فلن توجد إلا على صورة واحدة فى هذه المرة ، وكل ما تختاره بعد ذلك فانما هو من وحى تلك الصورة ، ليس منه محيص ولا محيد

كلا يا بنى

لن يكون أبو العلاء إلا أبا العلاء ! !



بساط الرّيح

قال الشيخ : الحمد لله استطعنا وفعلنا . . .

قال الرسول : ان الفضول ذميم فى كل شىء
يامولاى إلا فى طلب العلم والسؤال عنه . أفيأذن لى
أستاذنا فى سؤال ؟

قال الشيخ : أحسبك تسألنى عما استطعت وفعلت

قال الرسول : نعم . هو ذاك !

فصمت الشيخ قليلا كمن يستحضر نغما بعيداً
أو كلاماً منسياً ثم أنشد :

وماء بلادى كان أنجع مشربا

ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال

فياوطنى ان فاتنى بك سابق

من الدهر ، فلينعم لساكنك البال

فان أستطع فى الحشر آتك زائراً

وهيهات لى يوم القيامة أشغال

هـذا الذى استطعناه وفعلناه : عودة إلى الوطن

وزيارة للمعرة فى هذا الحشر الذي حشرتمونا إليه

فأخذت الرسول شيطنة التلاميذ فى كل سن وفى

كل مقام ، وراح يقول لأبى العلاء : ومع هذا أنت

القائل :

فياليتنى هامد لا أقو

م . إذا نهضوا ينفضون اللِّمم

فأدار الشيخ رأسـه ناحية وزم شفتيه قليلا ثم

أجابه : نعم ! ليتنى هامد لا أقوم . أما وقد قمت فأَى

مكان أحق بالحنين من

بلاد بها نيطت عليّ تمائمي

وأول أرض مس جلدى ترابها

بل أصبح جسمي من ترابها ، واختلط فوق صعيدها وبين أحشائها . . . هذه هى المعرة ! نعم هذه هى المعرة عرفتها وما كدت أعرف غيرها . فالحمد لله على البعث فيها

فهجم التاميذ بسؤال جديد ، وعوّل على الاكثار من السؤال ، إذ لا محيص من مساءلة الشيخ وإن ضجر بعض الأحيان . . . فربما كان ضجر الاجابة خيراً من ضجر السكوت سنوات ، ريثما يعقد الاحتفال ويجتمع المقبلون إلى المعرة لتحية حكيمها فى ذكراه

قال التاميذ فى سؤاله الجديد : أليس من عجبٍ هذا الحب للمعرة ممن عاف الدنيا بأسرها ؟

فأجاب الشيخ فى غير ضجر ولا تأفف ، كأنه كان

يتوقع سؤالا كهذا من تلميذه : «ما أكثر عجب الناس مما لا عجب فيه ! إنما يحب الوطن الصغير من يعاف الوطن الكبير ، ومن كره الدنيا كره التقلب فيها وكره السعى وراءها فى نواحيها . فالى أى منقلب يصير غير المكان الذي لا عناء فيه يتجشمه ، ولا جديد فيه يفجأه بما يسوءه ، ولا يزال فيه قريباً من عهد صباه ، قبل أن يذوق مرارة العيش و يمتحن بيلواه ؟ وما أحرى من اتخذ فى المعرة محبساً لا يفارقه أن يتخذ فى الدنيا بأسرها محبساً هو هذه القرية !! لو فعل غير ذلك لعجبتم منه ، فاعجبوا واخلقوا العجائب فلعلكم تستروحون الحياة ببعض ما تعجبون له ، ولعلكم أطفال القدر يضحك منكم حين تسألون ثم يضحك منكم حين تقنعون بالجواب ، أو تحسبون أنكم فى غنى عن السؤال ... يابنى سل ما بدالك . فقد سألتُ الغيب

كثيراً وسألنى الناس كثيراً ، وعالجت السؤال فى الدنيا والآخرة ، فلا أدري ماذا أصنع إن لم أكن سائلا أو مجيباً لسائل ، وما أخالك ساكتاً لو دعوتك إلى السكوت ، فتكلم ما أذونا فأنتم أزهد الخلق فى مباح وأرغبهم فى ممنوع ، وقد يرخنى الإذن لك أضعاف مايرخنى الأعراض عنك ، فلو صدقنى من قبلك حين قلت لهم إننى أجهل ما يجهلون لطمعت فى تصديقك إياى حين ألوذ بالصمت أو اقر بالغباء . . .

واضطرب الرسول لا يدرى أهذا ترخيص فى السؤال أم نهى عنه ، وانقباض من الشيخ أم تبسط وانطلاق . وانه لكذلك إذ عاد الشيخ يتكلم كأنما قد سرت فى نفسه حرارة الثورة على الناس ، وإنها لحرارة ترضى صاحبها عمن يثيرها ساعة تسخطه عليه ، كما يعدو الجواد فزعا فيشعر بنشاط العدو وجفلة الفزع فى آن ،

وأبو العلاء ثائر يرضيه الاعراب عن ثورة نفسه ولا يرضيه طول الكتمان لطباعه . فعاد يقول :

« ألا تنبئنى يابنى : ماذا تظنون حين تسألون رجلا متهما بالعلم فيعجز عن الجواب أو يأباه ؟ أتحسبون الغيب سلطانا يجتبى بأسراره الحاشيةَ المقربين ؟ أتحسبون من يصحبه مطلعا لا محالة على كل أمره فلا يخفى شيئا إلا اتهمتموه بالضن أو الدهاء والروغان ؟ إن كان هذا ما تحسبون يابنى فالغيب ليس بسلطان ، والعلماء ليسوا بحاشية سلطان ، وأحرى أن يكون العالم كالمدلج فى الظلام يحمل مصباحه على قدر ضيائه فهو يرى ما هناك ولكنه لن يرى ماليس هناك . . . فان سألتم فاسألوا عما يجوز علمه أو ما يجوز وجوده حيث يراه المدلج وحيث يقع عليه شعاع المصباح . أما ما وراء ذلك فالعلماء والجهلاء فيه كما قلت لكم قريب من قريب »

فتنفس التلميذ الصعداء وعلم أنها غضبة ليست من غضبات الجفاء والنقمة ، وقال وهو يتلعثم : لقد علمت مالم أسأل عنه ، فما أسعدنى بقربك أيها الحكيم سائلا وغير سائل ، وسترى أيها الحكيم أننى لن أسألك إلا عما هو فى علمك ولن أطلب منك إلا ما هو عندك . فهل أحسب الشيخ آذنا فى هذه الساعة بسؤال أو أعفيه حتى يأذن ويستريح إلى الجواب ؟

فتبسم أبو العلاء وقد راجع نفسه واسترجع حلمه وأناته ، والتفت إلى تلميذه ملاطفاً وهو يقول له : ان كنت قد تعودت منى مارأيت وفهمت أننى لا أغضب منك ولا عليك فنحن على وفاق . . ولك إذن أن تسأل ولى أن أجيبك أو أغضب كما غضبت منذ هنيهة ، ولا حرج علينا معا فى هذا ولا فى ذاك

قال التلميذ : جزاك الله خيراً يامولاى فى غضبك

ورضاك ، فما قول الأستاذ فى اقتراح لا يشق عليه أن يجيبه ؟ ماقوله فى رحلة بين آفاق الأرض ثم نعود إلى قريته العزيزة فى موعد الوفود ؟

فاعتدل أبو العلاء فى مجلسه وهو يقول : أوتدعونى إلى الرحلة وما فرغنا بعد من الكلام على الوطن والقبوع فيه ؟ إنك لا تضيع فرصتك يابنى ، وانك لسريع الهجوم .

فلم يحجم التلميذ ولم يتردد . بل راح يقول : ان يومك يامولاى غير أمسك ، وان المعرة اليوم لعلى مسافة ساعات من بغداد ، وان الأرض كلها لتطوى الآن فى أيام معدودات . فلو لم يكن فى السفر إلا تجربة هذه العجيبة المستحدثة فى زماننا لكان ذلك شفيعى فى اقتراحه وشفيع الشيخ حفظه الله فى قبوله

فطال انصات الشيخ كالمستريب المتوجس ، وخطر له

ان الفتى يغرر به ولا يصدقه المقال ، ثم سأَل فى صوت خفيض :

ماذا تقول؟ المعرة على مسيرة ساعات من بغداد ! والأرض كلها تطوى فى أَيام معـدودات !؟ هل عادت المعجزات وهل رجع بساط الريح ؟ هل أصدقك والعقل أولى بتصديق ؟

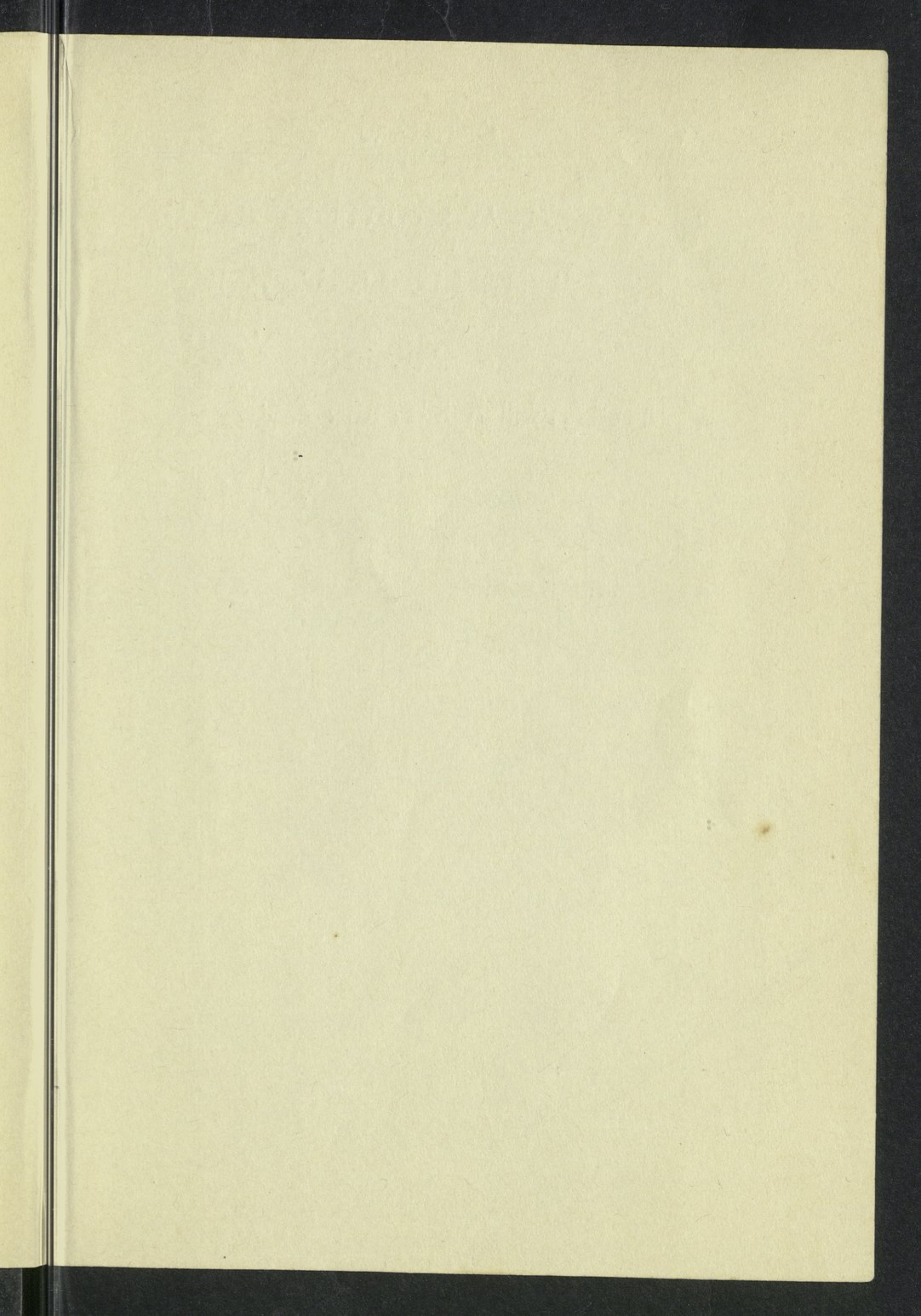
قال التلميذ : ما على الشيخ إلا أن يقبل الساعة وسيصدقنى ويصدق العقل معاً بعد ساعات

قال الشيخ : قبلت ، فأين بساط الريح ؟ وأين سليمان ابن داود ؟

ثم مضى التلميذ يشرح للشيخ ما يريده ، والشيخ مقبل عليـه ظاهر العجب من كلامه ، حتى فرغ من شرحه وهما على اتفاق أن يجوبا بقاع الأرض فى مشرقها ومغربها وأن يشهدا الأجيال التى لم يشهدها أبو العلاء

ولم يسمع بخبرها ، وأن يتعلم كلاهما من صاحبه ما عنده من علم ، ويتخذه دليلا له فيما تجهل ، فلا حرج من سؤال ولا حرج من جواب .

وسنسمع ، بعدُ ، ما قال أبو العلاء وما قيل له في كل مكان وصلا اليه



حكم السيف

ألم أقل لك يابنى أننى لا أملك أن أرى رأيا جديدا ولا أن أحيا حياة جديدة ؟

قصارى ما يملك المرء فى هذه الدنيا عمر واحد يعلم فيه كل ما قُدر له من العلم ويعمل فيه كل ما وسعه من العمل ؟ ويختبر فيه اختباره ، ويستوفى منه أحواله وأطواره . فاذا قضاه فتلك حصته من الزمن لا حصة له بعدها ، ولا نصيب له من أعمار الدنيا وراءها

قال الرسول : والشهرة يا أستاذنا ، أليست هى عمرا متجددا وحصة مزدادة ؟

قال أبو العلاء : كلا يا بنى الشهرة استطالة لعمر

الشهير : فيها تكرار له وليس فيها تجديد لشيء منه ...
ختمت حصتى من الوقت فلا تنتظر منى قولا غير ما
قلتُ ، أو رأيا غير ما رأيتُ ، ولو اطلعتنى كل يوم من
دنياك هذه عَلَى جديد

فأَحس الرسول شيئا من خيبة الرجاء ... أولا يسمع
من أبى العلاء كلمة فيها معنى من المعانى غير ما سطرته
الأوراق وفرغ منه الحافظون والشراح ؟؟ لقد كان
يحسب أنه ظافر بأبى علاء جديد ، أو بطبعة منقحة من أبى
العلاء القديم ، فاذا به يسمع مرة بعد مرة ان أبا العلاء هو
أبو العلاء ؛ وأن حجاب الزمن قد هبط بعده فلا منفذ
من ورائه إلى علم غير ذلك العلم ، ولا إلى حكمة غير تلك
الحكمة . وأوشك أن يقتضب الرحلة لولا أنه استدرك
وتدبر ، فعلم أن مشاهدة الدنيا فى صورة علائيــة أمر
يستحق النظر ومعرفة تستحق العرفان . فانطلق يقول :

إذن يا مولاى أنا أَعلم رأيك فى هذه الحكومات العسكرية التى تركنا بلادها ، أوهذه الأمم التى يجرون على وتيرة لايشذون عنها و نظام لايهاودون فيه ، أنت تحمدها بعض الحمد لأنك تقول :

واخش الملوك وَياسِرْها بطاعتها
فالملك للأرض مثل الماطر السانى[1]

إن يظلموا فلهم نفع يعاش به
وكم حموك برجـــل أو بفرسان

وهل خلت قبل من جور ومظلمة
أَرباب فارس أو أرباب غســـان

وهذه الحكومات المجندة تحمى من الفوضى ولها نفع يعاش به فى أَزمان القلاقل ، وهى تزعم ألا حرية للناس فى قديم من الزمن أو حديث ، ففى كل حكومة

(١) سنا السحاب الارض :سقاها

جور ومظلمة . والحكم هكذا يكون ، أو لا فهو فتنة وظلم مكنون

فأَصغى أبو العلاء طويلا . ثم قال : ولكننى كما قلت هذا قلت كذلك :

ومن شر البرية رب مُلك

يريد رعيةً أن يسجدوا له !

وهؤلاء الحاكمون يقولون انهم معصومون وانهم لايحاسبون ، وانهم أرباب يدان لها بطاعة الساجدين الراكعين . فما أحمق هـذا وما أحراه ألا يكون بين أناس يعقلون :

قال الرسول :

الحق ما تقول مولاى ، لولا أن الرعيـة تحب هؤلاء الحاكمين وَلا تطيعهم إلاوهى راضية بما تطيع

فلم يزد أبو العلاء على أن أعاد بيته القديم :

تلوا باطلا وجلوا صارما

وقالوا صدقنا . فقلنا نعم

ثم سكت وأطال السكوت

فعاد تلميذه يحـــاوره وكأنه ذو هوى فى تعظيم مذاهب الحكم عند هؤلاء العسكريين ، وقال فيما قال :

إن هؤلاء القوم لا يخضعون على كره منهم ، ولكنهم يخضعون لأنهم يؤمنون إيمان الحاكمين ويفكرون تفكيرهم ويريدون مرادهم ويفرحون بعظمتهم كأنها عظمة لهم فيها نصيب ، وكأنهم شركاء فى السيادة حين يخضعون لأولئك السادة

قال أبو العلاء :

وما أعجبتنى لابن آدم شيمة

على كل حال من مسود وسائد

ذلك أدهى وأمر ، وليتهم فكروا وخالفوا

وخضعوا مرغمين ، فذلك أكرم لعقل الانسان وأدنى إلى الرجاء فى الخلاص ، أما أن يسلب الانسان الفكر حتى لا يفكر إلا بأمر حاكميه وعلى وفاق الهوى من رؤسائه ، فذاك آلة من الآلات وحيوان من العجماوات وليس بآدمى له عقل ، والعقل امام للآدميين أولى بالاَتباع من كل امام

قال أبو العلاء ذلك وزوى وجهه كأنه قطع القول وحسم الجدل ، وقال مالا رجعة فيه ولا مزيد عليه

إلا ان التلميذ قد طاب له أن يسترسل فى النقاش والسؤال فانثنى يقول : أو لا تُغتفر الطاعة من الرعية حتى لو أفلح الرعاة فى سياسة الأمور وشاهد الناس فلاحهم آنة بعد أخري ، فعلموا انهم راشدون وانهم لا يخطئون ، وان خطأهم آمن فى عقباه من خطأ الكثيرين ؟

فسأل أبو العلاء : من القائل :

يسوسون الأمور بغير عقل

وينفذ أمرهم فيقال ساسة !

فأجاب التلميذ : كيف ؟ انك أنت قائل هـذا يا مولاى !

قال أبو العلاء : ذلك فحوى كل جواب على كل سؤال من قبيل ما سألت . . . فلا تنظر يا بنى إلى فلاح هؤلاء الساسة حين ينفذ أمرهم ويستقر سلطانهم وتمضى مشيئتهم . بل انظر اليهم حين يفشلون وحين يريدون فلا يقدرون . . . انظر اليهم يومئذ تعلم انهم يخطئون كما يخطىء سائر الناس وأكثر مما يخطىء سائر الناس ، بل تعلم ان الناس يرون لهم من الخطأ يومئذ أكثر مما صنعوه وأكثر مما يستطيعونه أواستطاعوه . ولا تنس أبداً قول الحكيم القديم

والناس من يلق خيراً قائلون له

ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

واذكر يا بنى أن هؤلاء الجيوش المجندين يتعلمون الجبن حين يتعلمون ما تحسبه شجاعة ... وان أشجعهم لن يجرؤ على كلمة يغضب بها سيده وصاحب أمره ... وما بقى بعـــد ذلك من اقدام على القتال أو الشجار ، فهو اقدام اضطرار ، أو اقدام مخمور بحميا الضجيج والفخار .

وما أبرىء نفسى يا بنى . لقد عرفت هـذا الجبن وقلت فيه :

لجأت إلى السكوت من التلاحى

كما لجأ الجبان إلى الفرار

ويجمع منىَّ الشفتين صمتى

وأبخل فى المحافل باقترارى

هؤلاء كلهم يا بنى فارون من المنطق والـكلام ، جبناء يهربون من الميدان إلى السمت الذى تدعوه طاعة أو تدعوه شجاعة ، وما هو من الطاعة والشجاعة إلا كالرجل وصورته فى المرآة

قال التلميذ : واجمال ذلك كله فى كلمة واحدة يامولاى

قال أبو العلاء : اجمال ذلك كله يا بنى فى بيت واحد ، وهو

ساس الأنام شياطين مسلطة
فى كل أرض من الوالين شيطان

وانفض بذلك الجدال بين الشيخ وتلميذه ، وهما قافلان من بلاد الحاكمين العسكريين .

المستشرقون

هؤلاء الذين استغربت أمرهم يا مولاى ، هم من
سميناهم نحن بالمستشرقين ، وهم أناس لم يسمع بهم الأستاذ
لأنهم نشأوا أول نشأتهم فى عصره ، فكان أقدمهم يتعلم
العربيـة والحكمة على عرب المغرب يوم كان الأستاذ
على دروسه القيمة فى المعرة قبل عشرة قرون ، وكانوا
قسيسين ورهبانا يدرسون علوم العرب ليفقهوا أسرار
القرآن ويستعدوا لها بالحجة والبرهان ، ثم شاع أمرهم
حيث شاع أمر الدولة المسيحية وأمر الخلاف على الاناجيل
بين حبرها الأعظم ومن خرجوا عليه واعتزلوه ، فمن ثم
كثرت طوائفهم فى بلاد الجرمان ولا يزالون أكثر
مايكونون بين هؤلاء القوم ، ولاسيما وهم قوم مشغوفون

باللغات والبحث فى الأصول واللهجات . فهـــذا علة ما استغربه الأستاذ من شيوع الاستعراب هنا حيث نحن الآن مقيمون ، وأنهم من أجل هذا يحومون حول هذا الورد ويغتنمون هذه السانحة ، ولا يريدون أن يعبر بهم حكيم المعرة دون أن يوسعوه حفاوة وسؤالا ويتخذوا من كلامه بيانا يعتصمون به ودعاية يدعون اليها . فان شاء الأستاذ أن يصابرهم ويستقصى خبرهم فله الرأى الأعلى فيما يشاء . . . »

ذلك كان حديت التلميذ لأستاذه بعد رحلة ليست بالقصيرة قضياها فى بلاد الجرمان ، ولقيا فيها فئات من المستشرقين سمعوا برهن المحبسين فزاروه واستزاروه ، وسأَلوه وأَجابوه ، وعجب أبو العلاء من شأنهم فى بلاد الغرب فسأل تلميذه عنهم على سبيل الاستطلاع أو على سبيل القصاص ، لـكثرة ما أطال عليـه من سؤال ،

وكثرة ما التمس عنده من فائدة ، وكثرة ما كلفه من تجوال

فلما أنبأه التلميذ نبأهم قال أبو العلاء :

استعجم العرب فى الموامى
بعدك واستعرب النبيط

ثم قال :

أين امرؤ القيس والعذارى
إذ مال من تحته الغبيط

وجعل يردد : أين ؟ أين ؟

ثم عاد يقول : هيهات ! هيهات !

هذه فئة عهدنا لها أشباها بين رهبان زماننا ، يدرسون العلم دراسة رهبان ولا يزالون رهبانا فى كل ما يدرسون . فهم يحجون إلى العلم من طريق الدين ، وقلما يعرفون العربية إلا بلسان أعجم ونفوس أشد عجمة ،

وأقربهم إلى البصر بها من كان للعلم قصده وكانت له فى لغة قومه قدم ، وهم جامعون ومحيطون ، دأبهم كدأب كل محيط يقف عند الأطراف ولا ينفذ منها إلى القلب ، ولهم على ذلك ما استحقوا من جزاء ، وثناء

ثم قال : ومن هؤلاء الذين تسألنى أو تأمرنى أن ألقاهم الساعة ؟

قال التلميذ : أستغفر الله يامولاى ، فالأمر والرأى لك ، وإنما هو اقتراح أو رجاء ، وأنت وما ترضاه من قبول أو اباء :

هؤلاء الصحفيون يسألون وقد عرفت طريقتهم فى السؤال ، فان أذنت لقيتهم جميعاً مرة واحدة وأفضيت لهم بخبر ما هم مستخبرون ، فلا نجاة منهم قبل أن نرحل من هذه الديار

فاستسلم أبو العلاء وأومأ قائلا . علىّ بهم مجتمعين !

فما أتمها حتى كان واحد منهم على الباب وكان يتلو خطاباً
قد استظهره وتصنع لالقائه، وجاء منه بعد كلام طويل :

« إننا نستقبل منك فى بلاد الجرمان رجلا من أهل
الشمال و إن كان مولده فى الجنوب ، وعقلا من عقول
الآريين وإن كان منسوبا إلى الساميين ، وشاهداً جديداً
على صدق علم الأجناس الذى كشف لنا حقيقة النبوغ
ودخيلة المزايا والأخلاق بين الشعوب ، فلا فضل ولا
عبقرية ولا ارتقاء فى الآداب والفنون ، ولا فى العقائد
والأخلاق إلا أن يكون مردها جميعاً إلى أبناء الشمال ،
وإن خفيت مصادر النسب واختلفت مواقع الميلاد

«ولو لم تكن أيها الرجل العظيم من سلاله الآريين
لما اتصل الروح بينك و بين الهند فرأيت ماراه
البوذيون وحرمت مايحرمون ، وابحت مايبيحون ، فأنت
الناهى عن أكل الحيوان وجناه حيث تقول :

تق الله حتى فى جنى النحل شرّه

فما جمعت إلا لأنفسها النحل

وأنت الناصح باحراق الموتى وإن عجبت منه حيث تقول:

فاعجب لتحريق أهل الهند ميّتهم

وذاك أروح من طول التباريح

إن حرقوه فما يخشون من ضبع

تسرى اليه ولا خفي[1] وتطريح

والنار أطيب من كافور ميتنا

غبا وأذهب للنكراء والريح

وأنت المنكر كل ماذهب اليه البشر إلا مذهب الهند حيث تقول:

عجبت لكسرى وأشياعه

وغسل الوجوه ببول البقر

(١) خفى الشىء أظهره وهو هنا يعنى النبش

وقول النصارى اله يضا
م وَيظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب
رشاش الدماء وريح القتر (١)
وقوم أتوا من أقاصى البلا
د لرمى الجمار ولثم الحجر
فوا عجباً من مقالاتهم
أيعمي عن الحق كل البشر ؟ !

ولاح على الرجل أنه منطلق فى تحيته إلى غير نهاية فلم يمهله أبو العلاء حتى يأتى على شواهده وأمثاله ويستطرد إلى نتائجه وغاياته . ومال إلى تلميذه ورسوله يقول وكأنه يساره : أين يذهب عن هذا الثرثارة قولى « وغسل الوجوه ببول البقر » ؟ أليس لأهل الهند فيه نصيب ؟ ثم قاطع الصحفى الخطيب سائلا :

(١) رائحة العظم المحروق

ماذا تعنى بساميين وآريين وأهل شمال وأهل جنوب ؟

فأسرع التلميذ يجيبه قبل إجابة الصحفى : « : أنهم يامولاي يعتقدون اليوم فى بلاد الجرمان أن البشر جنسان : جنس مخلوق للسيادة والحكم ، وجنس مخلوق للطاعة والتسخير ، وإن أهل السيادة منبتهم فى الشمال ثم انحدروا منه إلى الهنـــد ، فهم المعروفون بالهنديين الآريين ، وأن أهل الطاعة والتسخير منبتهم فى الجنوب فهم الساميون أبناء سام أو الحاميون أبناء حام ، ومن شاكلهم فى السحنة والسواد ، وأنه مامن نابغ عظيم إلا وهو مردود إلى أهل الشمال فى معدنه وعنصره القريب ، وإن ظهر بين أبناء الجنوب . ولعل شبهتهم فى انتمائك إلى الشماليين يامولاى : إنك مولود على مدرجة الصقالبة والروم .... »

فانتفض أبو العلاء انتفاضة العربى المسبوب فى نسبه وصاح بالتلميذ : ويح الرجل ! ماذا عساه أن يريد منى بعد هذا التخليط ؟ قل له إن كان لا يسمع منى . . . قل له أنا القائل :

لا يفخرن الهـــاشمىّ
على امرىء من آل بربر
فالحق يحلف ما علىّ
عنده إلا كقنبر

وذلك حسبه من جواب

ثم هجم صحفى آخر يبدو عليه الاغتباط بما سمع من زجر زميله ، وأقبل يقول : تحية الاخوان إلى العربى العظيم : أنا ابن من أبناء سام

فهم أبو العلاء بالنهوض وهو يكاتم السخط والضجر ، وقال : أما فرغنا بعد من سام وحام ؟

من هذا يابني ؟ وهو يوجه السؤال إلى التلميذ الحائر بين أستاذه و بين طلاب الزيارة والسؤال من صحفيين مستشرقين ومستطلعين ، فبادر الصحفي الآخر إلى جواب أبي العلاء ، وتلطف في تسكين غضبه والترفيه من ضجره ، وأنبأه أنه من أنباء إسرائيل . وأنهم والعرب أبناء عمومة ، وأنه يريد منه كلمة الفصل في خصومة الآريين والساميين ، وانها قلما تنفع في بلاد الجرمان وقلما يجسر على نشرها بينهم أو نشر كلام يخالف ما يروجونه من أقوالهم ، ولكنه يبعث بها خفية إلى أناس يذيعونها في الخافقين ، ويعتزون بها في خصومة الجنسين وفي كل خصومة بين طرفين ، أحدهما آل اسرائيل .

وهنا أدركت أبا العلاء فكاهته المطبوعة وسخره من (تزاحم الاضداد) على قديم الأجداد ، أو على ميراث

المال والعتاد وهم يلهجون بميراث الآباء والأولاد ، وقال وقد تهيأ للمسير وتلميذه يعتذر بموعد القطار ووشك الرحلة وخوف التأخير :

(يا أخى : تلك خصومة لا يفصل فيها غير الله ! أنتم شعب الله المختار فى القديم ، والجرمان شعب الله المختار فى الحديث ، فاسألوه ولا تسألونى أيكما صاحب الحظوة الآن ؟)

مع المشيعين!

هبطت السكينة على نفس أبى العلاء

وقيل له إنك فى أمان ليس لأحد عليك من سلطان وانك ممن قيــــل فيهم « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ... خرجتَ من العالم الفانى فلا تمتد اليك يد ولا ينالك أحد من الناس بعدوان ، فقل ما بدا لك من رأى ، ولا تطل همسك ان نطقت بالحق ولا ترفع رأسك إن نطقت بالمحال . أنت اليوم غيرك بالأمس : أَأنت اليوم من الخالدين .

وإنما قيل له ذلك لأنه صارح بعض الجرمان وهو فى بلادهم بمذهبه فى اختلاف الأجناس وتفاوت الأقوام فشجبوه وهموا أن يبطشوا به على تخوم بلادهم ، لولا

أن ردتهم عنه هذه الحصانة التى لاحصانة مثلها للمجالس النيابية ولا للهيئات الوزارية ... وهى حصانة الخلود

لهذا كان مسلكه مع جماعة المشيعين أو الشيوعيين حين نزل بأرضهم غير مسلكه المعهود من التقية والمداراة والصمت والفرار ، فقال ما أراد أن يقول ، ولم يعبأ منهم بزمجرة ولاصخب ولا وعيد

وقف رفيق من رفقائهم يخطب فى حفل جمعوه للترحيب بأبى العلاء ، أو للشيوعى العربى القديم كما أسموه ، فقال بعد اسهاب وترديد

« هذا أيها الرفاق رجل متناقد سبقنا بكل رأى من آرائنا وكل دعوة من دعواتنا ، فنحن ننكر التفاوت فى قسمة الأرزاق وهو ينكره فى كل صورة من صوره ، وكل منحى من مناحيه ، فيقول عن التفاوت بين العاملين وأصحاب الأموال .

لقد جاءنا هـذا الشتاء وتحته

فقير معرى أو أمير مدوّج

وقد يرزق المجدود أقوات أمة

ويحرم قوتاً واحد وهو أحوج

ويقول عن التفاوت بين الشاب الفقير وهو أولى بالمال و بين الشيخ الموسر وهو مدبر عن الحياة :

يعيش الفتى فى عدمه عيش راغب

ويثرى مسن للمعيشة سائم

ونحن ندعو إلى التآزر الاجتماعى والتكافل بين العاملين فى الأمة ، وهو قد نادى بذلك من قبل فقال .

الناس للناس من بدو وحاضرة

بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدم

ونادى بخدمة الحاكمين للرعية فقال :

إذا ماتبينا الأمور تكشفت

لنا وأمير القوم للقوم خادم

وقال :

ملّ المقام فكم أعاشر أمة

أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها

وعدوا مصالحها ، وهم أجراؤها

واستطرد إلى أبعد من هذا فى التكافل بين أعضاء المجتمع الانسانى فقال :

وكل عضو لأمر ما يمارسه

لا مشى للكف ، بل تمشى بك القدم

بل استطرد إلى أبعد من هذا فى المساواة فقال :

ان شقاً يلوح فى باطن البر

ة قسم بينى وبين الضعيف

ولقد بينا نحن للناس أن الآداب والعقائد إنما هى مصالح الطبقة الحاكمة تصوغها على هواها لتدعم سلطانها والغلبة على من دونها ، وهذا الحكيم العربى قد بين ذلك حق بيانه حين قال :

إنما هـذه المذاهب أسبا
ب لجلب الدنيا إلى الروساء

وحين قال فى اظهار سطوة المال وقدرته على تحويل الآداب وتحويل الحقوق :

المال يسكت عن حق وينطق فى
بطل ، وتجمع إكراما له الشيع
وجزية القوم صدت عنهم ، فغدت
مساجـد القوم مقرونا بها البيع

ونحن بشرنا بدين العقل ، وهو مبشر به فى قوله :

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً

وأخرج منها ما أمامى سوى عقلى

ومثل ذلك قوله وهو يسير من كثير :

كذب الظن لا إمام سوى العقل

مقيما فى صبحه والمساء

بل نحن قررنا تفسير التاريخ « تفسيراً مادياً » كما سميناه وهو قد أشار إلى ذلك فقال :

الناس للأرض أتباع إذا بخلت

ضنوا وإن هى جادت مرة جادوا

وألمع إلى ذلك مرة أخرى فى هذا البيت على سبيل الرواية :

قالوا البرية فوضى لا حساب لها

وإنما هى مثل النبت والشجر

وزاده توضيحاً وتقريراً حيث قال :

لم تجدبوا لقبيح من فعالكم

ولم يجئكم لحسن التوبة المطر

ولا أبالغ إذا قلت انه ذكر الاشتراكية بلفظها فى اللغة العربية ببيت من أبياته العامرة يقول فيه :

لو كان لى أو لغيرى قدر أَنملة

من البسيطة خلت الأمر مشتركا

وأنه قد أنحى على طبقات الفضوليين المتطفلين على المجتمع الانسانى بغير عمل ينفعونه به حيث قال

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا

سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

وأطيب منهم مطعماً فى حياته

سعاة حلال بين غاد ورائح

فهو يأنف من التطفل الاجتماعى أيا كان المتطفلون ولا يبيح القوت إلا لمن يكسبونه ويستحقونه ، وهو

قد فرق فى قصائده ما اجتمع من مبادىء المذهب الاشتراكى فى كتب الأساطين ومباحث الدعاة العاميين ، وتلك مرتبة ترفعه على أبناء عصره درجات ، وتجعله من أئمة الفكر فى تاريخ الإصلاح بين الأقدمين والمحدثين

ثم اقترح الخطيب على سامعيه أن يقفوا جميعاً ليشربوا نخب الشاعر الذى جمع من مبادئهم فى منظوماته ومنثوراته مالم يجتمع قط فى كلام أحد من الشعراء :

فنهضوا جميعاً وشربوا أقداحهم وقوفا ، ثم جلسوا يترقبون وقفة الشيخ بينهم ليجيب على التحية والتكريم ويجيب على بحث الخطيب بجديد من مقاله أو قديم ، والشيخ لا يعلم أنه مطالب بالوقوف أو مطالب بالتعقيب ، حتى نبهه الرسول الذى يصاحبه فى كل مكان إلى ما يترقبه القوم ، ثم أخذ بيده إلى المنصة فنزل الصمت على

الحاضرين ، وانقضت هنيهة لم يسمع بعدها إلا شيخ
المعرة وهو يقول بصوت رقيق ولكنه ليس بالضعيف :

(. . . . أنتم مشكورون عَلَى جميل ثنائكم واحتفائكم
بهذا العاجز الماثل بين أيديكم . لكنه حائر في موقفه هذا
لا يدري ما تبغونه بمذهب الاشتراكيين أو بمذهب
التفسير المادي للتاريخ ، فأما قوله

لو كان لي أو لغيري قدر أنملة

من البسيطة خلت الأمر مشتركا

فإنما يعني به التوحيدَ الإلهي ويريدُ به أن الناس
أغنياءهم وفقراءهم على حد سواء لا يملكون في جانب
الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً ، وهو من قوله :

ويقول داري من يقول وأعبدى

مه فالعبيـــــد لربها والدار

أو هو من قوله:

مافى بنى آدم غنى

فكلهم مقتر عديم

يغنى الذى ماله فناء

وذلك الواحد القديم

أوهو من قوله :

فقير كل من فى الأر

ض . أن العبد لا يملك

أوهو مں قوله :

إله الأنام ورب الغما

م لنا الفقر دونك والملك لك

فما أدرى من أين تسربت « الاشتراكية » إلى معناه كما تصفونها فيما سمعت من خطب وقرأت من بحوث وشروح

ما أردت إلا الرفق بالناس ، بل ما أردت إلا

الرفق بجميع الأحياء فكنت أوصى السيد أن يرفق بعبده . وأقول له :

إذا كسر العبدُ الإناء فعدّه
أذاة له . أن الاناء إلى كسر

وكنت أوصى العبد والفقير أن يرفقا بالبهيمة الخرساء . و يريبنى منهما ماقلت أنه يريبنى :

لقد رابنى مغدى الفقير بجهله
على العير ضربا . ساء مايتقلد

الرفق الرفق . والرحمة والرحمة . ذلك ما أردت وذلك ما دعوت اليه . وما دار فى خلدى يومئذ إلا الزكاة يؤديها أهل السعة للمضيقين

إذا وهب الله لى نعمـــة
أفدت المساكين مما وهب

جعلت لهم عشر سقي الغما

م وأعطيتهم ربع عشر الذهب

وكنت أعجب

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة

قومٌ عليهم النعمــــاء

وأوصي بما وصى به دين الحنيفية

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم

لما رأيت بنى الاعدام شاكينا

أما أن يأتى زمان ينقطع فيه الفقر ويبطل فيه الغنى وتؤول فيه السيادة إلى العالمين المستضعفين على سنة التساوى وشرعة المزاملة فذلك ما أنبأ به بعض المنبئين فى زماننا فقلت راويا ومجيبا :

يقال أن سوف يأتى بعدنا عصر

ويرضى، فتضبط أسدَ الغابة الخطم[1]

---

(١) جمع خطام وهو ما يوضع فى أنف البعير ليقاديه

هيهات هيهات . هذا منطق كذب

في كل صقر زمان كائن قطم[١]

مادام فى الفلك المريخ أو زحل

فلا يزال عباب الشر يلتطم

وأقولها اليوم مرات : هيهات هيهات ، وما أنتم فيه مُصدِّق لما أقول ، وإن أعجبكم أن تسمعوا منى خلاف المعقول والمنقول ، وأين لومى الرؤساء على اتخاذهم المذاهب أسبابا لجلب الدنيا اليهم من قولكم إن المذاهب لا ينبغى أن تكون إلا كذلك ؟ إنما أقول على سبيل الانكار وأنتم تقولون على سبيل الاقرار ، وشتان ما أردتم وما أريد .

بل ما لكم لا تدعون انني ناديت بمذهب الفوضى حين قلت :

(١) القطم : اشتهاء اللحم

إن أكلتم فضلا وأنفقتم فض

لا فلا يدخلن وال عليكم

لا تولوا أموركم أيدى النا

س إذا رُدت الأمور اليكم

وما ناديت بالفوضى ولكنى أردت اتقاء الوالين بالعفة والزهادة

قال المعرى ذلك وكأنما كان متجليا عليه فى تلك الساعة قوله :

إن عذب المين بأَفواهكم

فان صدقى بفمى أعذب

ولم يكن متجليا عليه قوله إنه يفر بالصمت من المجال .

أما ما حدث من أثر هذا الجواب فى نفوس السامعين

من معاشر الشيوعيين فغنىٌّ عن السرد والافاضة ، وحسبك منه صيحة الرسول فى أذن الحكيم : كفى كفى أيها الأستاذ الرحيم فانك إن كنت على نجوة فى حصانة الخلود ، فما أنا بين القوم من الناجين !

في بلاد الشمال

خرج المعرى وتلميذه من أرض الشيوعيين وهما يلعنان الديار والديارين ، وأصبح التلميذ ولا هم له بعد إفلاته من براثن القوم إلا الوصاة بالتقية والمحاذرة ، قائلا ومعيداً ما قال : مولانا الشيخ ! إنك فى حرز من ضيم الأقوياء ، وأمان من سطوة أبناء الفناء . أما تلميذك ومريدك فلا حرز له منهم ولا قوة له معهم ، ولا أمان أن يبطشوا به بطشة واحدة ، فاذا أنت يا مولاى قد فقدته فى منتصف الطريق . وكان الشيخ يداعبه فيظهر الاصرار على المناقشة والمناوشة ويردد ما أنشد فى سابق أيامه بدار الفناء :

ان عذب المين بأفواهكم

فان صدقي بفمي أعذب

قائلا : يا بني ! ما أنا بصاحب الرحلة بل أنت ... فاصبر على بلائك واحتمل عاقبة رأيك . فينتفض التلميذ خوفا وحيرة ويعيد الوصاة والرجاء ، مناشداً مولاه الرحمة التي أرادها لبني الانسان وبني الحيوان

فلما أطال التلميذ في وصاته قال الشيخ : ما بالك ياهذا تخاف وتوصي وتلحف في الوصاة ؟ ألعلك ذاهب بنا إلى معشر من الناس كأولئك الذين كنا بينهم ؟ إن كان ذاك فعد بنا إلى المعرة واختصر بنا مسافة هذه السياحة ، فلا طاقة لي بسخافة قوم آخرين كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الشيوعيين ، ولا بسخافة قوم كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الطغاة العسكريين

قال التلميذ : كلا يا مولاي الجليل . ما إلى هذه

البلاد وأمثالها نرحل ، وإنما أخاف ماليس فى الحسبان ...
إنما رحلتنا بعد اليوم إلى أقوام لا يحجرون على المقال
حجر أولئك الأقوام ، ولا يقسرون الناس على رأى
واحد وضمير واحد ، ولكنهم يقولون ما يشاءون
ويفكرون كما يشاءون ، فان خامرنى الخوف ونحن
مقبلون عليهم فذلك يامولاى خوف الحبل بعد
خوف الثعبان .

وطالت الرحلة فى تلك البلاد بلاد الشمال ، وتقلب
المعرى وتلميذه بين أهل النرويج وأهل السويد وسائر
تلك الأنحاء ، فحمدا كثيراً من الأحوال ، وشهدا أنماطاً
من الحكم والعلم لم يشهداها فى البلدان الغربية كافة .
فطاب السرى وطاب المقام .

ونزلا آخر المطاف ببلاد الدانيين أو الدنمركيين ،
فهما الآن فى مدرسة جامعة دعى اليها حكيم المعرة بأمر

من مليك البلاد ووزرائها ، على عادة القوم فى اغتنام
كل فائدة وتسجيل كل شاردة وواردة ، ليسألوا الشيخ
ويستطلعوا طلعه ، و يساجلوه القول ويظفروا بما شاء
من جواب

قال طالب علم : أيأذن الشيخ فى سؤال عن
حكومة ذلك المعشر الذين كان بينهم قبل أن يرحل إلى
أقطار الشمال ، وأعنى بهم معشر الشيوعيين ؟

قال الشيخ : تلك حكومة كلها رياء وعدوان ،
كاتبها يفعل فيها مايريد ، ولو جرى أمرها على الصدق
الصراح لما كان لهذا الكاتب من صولجان إلا القلم
والقرطاس

فعاد الطالب يسأل : أو ليس الأمر بين ذلك
الكاتب وزملائه على سنة الشورى والمساواة ؟

فامتعض الشيخ وأدرك الطالب بالجواب قبل أن

يسترسل فى السؤال : مه يابنى مه ! أى شورى وأية مساواة ؟ لقد سمعنا بعضهم يلوم من يخاطب ذلك الكاتب بكاف الخطاب كما يخاطب سائر الناس ؟ أعندك ياصاحبى قصيدة شاعر القازاق الذى أنشده مديحه ونحن هناك ؟ قال الشيخ هذا والتفت إلى التلميذ الرسول ، فوقف التلميذ الرسول ماثلا على المنصة وقال : نعم يامولاى ! !

ثم مضى ينشد قصيداً يقول فيه ناظمه :

« هل أشبهك بالأنبياء ؟ كلا ! فبعض الأنبياء يكذبون

« هل أشبهك بالبحر المحيط ؟ كلا ! ففى البحر المحيط صخور يتصدع عليها السفين

« هل أشبهك بالجبال ؟ كلا ! فما من جبل إلا وقمته فى مرأي العيون

« هل أشبهك بالقمر ؟ كلا ! فالقمر لا يضىء لا فى لياليه

« هل أشبهك بالشمس ؟ كلا ! فالشمس إنما تشرق فى يوم صحو لا غمام فيه »

وفرغ التلميذ الرسول من إنشاده فعاد المعرى يقول لطالب العلم الذى سأله ذلك السؤال : أو سمعتم أقبح من هـــذا الدهان فى مديح عاهل أو سلطان ؟ ما أخالكم سمعتموه ، وما أخالكم تذكرون فى الملوك ملكا واحداً كان له من الأمر النافذ فى الرقاب والأذهان ما يأمر به كانت الشيوعيين فيطاع .

وسأل سائل : أو لم ينصفوا الأجراء من أصحاب الثراء ؟

قال المعرى : لا يابنى . أنهم ظلموا أصحاب الثراء ولم ينصفوا الأجراء ، ولقد أخذوا المال من ذويه ثم

أفرغوه فى مصانع الدولة ، وما الفرق بين مال فى أيدى التجار ومال فى أيدى الولاة ؟

ورجع السائل إلى سؤال لاحقٍ بما تقدم فقال :
لكنهم على مايقولون قد عدلوا فى الأجور بين العاملين فأجر اليوم واحد لا اختلاف فيه

قال المعري : أجر اليوم واحد لاخلاف فيه ولكن العامل المحظوظ عندهم قد يعطى عدة أجور ، فهى مساواة من ناحية واختلاف من عدة أنحاء

وفرغ السائلون عن معاشر الشيوعيين فنهض السائلون عن أمم الشمال

قال طالب علم : ألعل الأستاذ قد حمد من قومنا ما ليس يحمده من أولئك الأقوام ؟

قال المعرى : نعم ولا أداجيك يابنى ... فقد رأيت

أنكم أبعد الناس عن مداجاة ، وإن بقيت منها أثارة في جميع بنى حواء

قال الطالب : وماذا حمد الأستاذ مما شهد فينا ؟

قال المعرى وهو يوجز فى جوابه : حمدت منكم يابنى تجارتكم التى بنيتموها على التعاون بين البائعين والشارين ، فما منكم إلا من يأخذ كفايته ويعطى كفاية الآخرين ، ولا ربح لأحد منكم خاصة ، بل أنتم جميعاً رابحون ، لأنكم بائعون شارون

ذلك يابنى سبيل قوام بين احتكار المحتكرين وبين اشتراك الشيوعيين ، فاذا اهتدى اليه الناس جميعاً فلعلهم يستريحون من تفريط هؤلاء ومن افراط هؤلاء

وحمدت منكم يا بنى أنكم لا تفتحون البلدان ولا تقتحمون الأسواق ، وأنتم مع هذا غانمون رابحون لكل سلعة من أرضكم طالب غير مغبون

وحمدت منكم يا بنى تعليم الفقير وتعليم الضعيف ، فما من طفل بينكم إلا وله مدرسته وله معلموه ، وإن أهمله أناس فى بلاد أخرى لضعف فيه أو لقصور ظاهر عليه

وحمدت منكم نظافة وصحة ورخاء تعم الأكثرين ولا يحرمها إلا القليل

وحمدت منكم رعاية الشيخ الكبير ، فلا يُقلى عندكم ولا تبخلون عليه بالرزق الكفاف

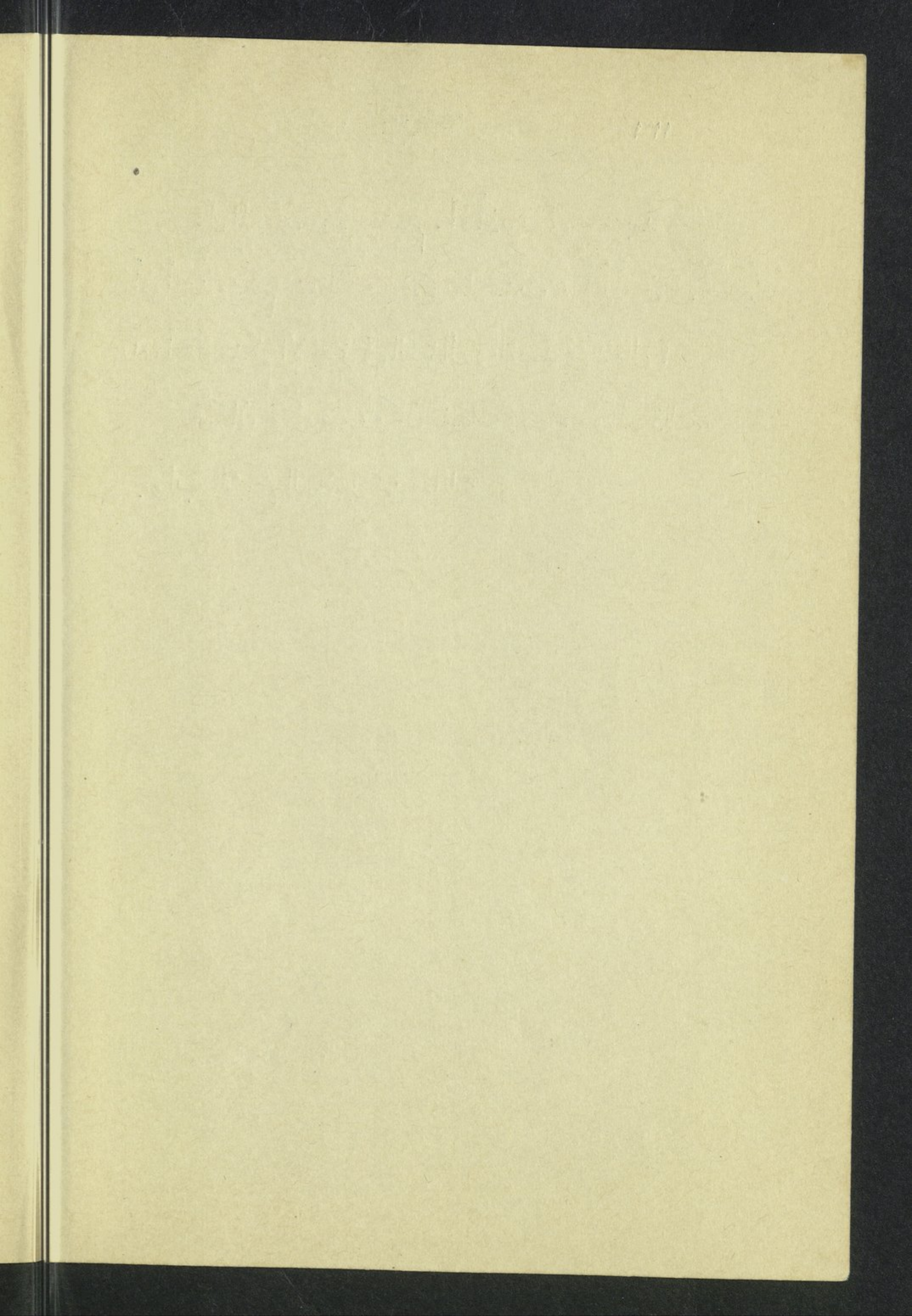
وحمدت منكم — وعرشكم أعرق العروش فى أرض المغرب الحديث — تواضعاً فى الملك لا يرى من أحدث العروش .

حمدت منكم هذا كله فهل هو كثير أو يسير ؟

فصاحوا جميعاً : بل هو كثير كثير ، من الشيخ الكبير .

قال المعرى وهو يبتسم : أفتأذنون لى — بعد — أن أحمد منكم شيئا آخر فوق ما حمدت ؟ أتأذنون لى أن أحمد منكم الايجاز فى السؤال والقصد فى المقال ؟

فكان سكوت ، وكان ضحك ودعاء ، وكان ذلك جواب الشيخ الكبير من سائليه .



جر الذيول

٦

قال أبو العلاء : ما كنت أحسب أن سأرى هذا

يوم قلت في مساوىء ذرية البنات :

وإن تُعطَ البنات فأَى بؤس

تبين في وجوه مقسمات

يردن بعولة ويردن حلياً

ويلقين الخطوب ملوّمات

ولسن مدافعات يوم حرب

ولا في غارة متغشمات !

فها نحن أُولاء في أرض أَندلس نراهن مدافعات

يوم حرب ، ومتغشمات في غارة ... بل غارات

كنا نسمع عن هـذه الأرض فنحضر فى اخلادنا الجنة وحورها ونعيمها ، فاليوم نشهدها شهادة القرب فاذا هى جحيم مسجور ، وإذا بالحور فيها زبانية يقذفون بالشرر ويتقلدون السيوف . . . ما أعجب ما ترينى يا بنى ! وما أعجب الظباء يقطعن بأظافر النمورة وينهشن بأنياب الذئاب

قال التلميذ : أو حق يامولاى انه عجيب ؟ ألم يقل به أفلاطون فى الحكمة القديمة ؟ حسبت يامولاى أنك على ذُكرٍ مما قال حكيم يونان ومعلم رسطاليس !

فتأوه الشيخ فى استذكار طويل ثم قال لتلميذه : ما سمعت بهذا من كلام يونان وحكمائها . فلعل من عجائب زمانكم أن يكون هذا الزمان أقرب إلى أفلاطون من زماننا نحن السابقين الأقدمين . . . ماذا قال معلم رسطاليس فى حرب النساء أصلحك الله :

فترجم له التلميذ كلمة من قوانين أفلاطون ، يقول فيها :

« على البنات أَن يتعلمن صناعة الحرب بأجمعها ، وعلى النساء أن يعالجن الرياضة و نظام الجيوش واستخدام السلاح ، ليستطعن — بين أسباب شتى — أن يحرسن ديارهن وأطفالهن حين يندب الرجال للحرب فى أرض بعيدة ، وقد يقتحم البلادَ جيش مغير كما يتفق فى كثير من الأجيال ، فيكون خزيا للدولة أن يبلغ من جهل النساء بفنون الحرب أن يعجزن عن القتال والاستماتة فى الذود عن الأطفال . وألا يكون لهن من عمل فى هذه الغارة إلا أن يهرعن ناحبات ناجيات إلى الهيا كل والمحاريب ! »

فأَوشك أبو العلاء أن يؤمن بصدق ما قال الفيلسوف ، ونزعت فيه نوازع العقل مرةً فكادت أن

تطغى على نوازع الطبع والعادة ، لولا أن غلبته النحيزة العربية وغلبه تراث الشرق العريق فالتفت إلى تلميذه منشداً ؟

وحمل مغازل النسوان أولى
بهن من اليراع مقلمات !

نعم وأولى من الحديد والنار

ثم استرسل منشداً :

إن من أكبر الكبائر عندى
قتل حوراء غادة عطبول
كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

ذلك يا بنى حكم ابن أبى ربيعة ، وهو أولى بالحكم فى هذه القضية من معلم يونان ... أكثير يا بنى أصحاب هذا الرأى فى زمانكم الحديث ؟

فأجابه التلميذ وقد لبس لبوس الأستاذ هذه المرة : هم غير قليلين في المغرب والمشرق ، فمنهم فى أرض الصقالبة ومنهم فى أرض الصين وما وراءها ، وكل من يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأه خليق أن يرى ماراه هؤلاء . فما بال المرأة لا تحارب والحرب اليوم آلات تدار أسهل من إدارة المغزل ومن شكة الابرة فى الثياب ؟

قال الشيخ : هي صناعة قتل سهلت أو صعبت ، فما لكم لاتتركون للمرأة صناعة الولادة وتدعون صناعة القتل لغيرها كما قال أخو مخزوم ؟ ومالكم لاتجعلون جيشها كله على مثال تلك الجيوش التى حدثتنى أنهم يحشدونها فى بعض البلاد ، لتقويم الأبدان والصولة ببأس الجمال ؟

فأسرع التلميذ يقول : لعلها الضرورة يامولاي ! لعل المقاتلين لا يستغنون عن مدد من النساء إذا قل الرجال

فأدركه الشيخ قائلا : بل إذا قلت الرجولة وأصبحت الحرب وليست هي من الفروسة ولا من البطولة ... ما أحسب الآفة عندكم أن النساء أصبحن كالرجال ، وإنما الآفة فيما أخال أن الرجال أصبحوا كالنساء ، فلا حرج إذن من المساواة فى القتال !

ثم سأل الشيخ : ما هذا الغرام بالحرب فى كل شعب من شعوبكم حتى استنفدت رجالكم وجارت على نسائكم ، واستنفدت سلاحكم وجارت على أدوات السلم فى أيديكم ؟ ماهذه الحاجة الملحة إلى أزهاق الأرواح وتمزيق الأبدان ؟ أهى فرط كراهة منكم للحياة أم هى فرط خوف من المنية ؟ أم أنتم مدفوعون إلى حيث لاتعلمون وأنتم تحسبون أنكم تعلمون ؟

وكأنما خشى التلميذ أن يحاسبه الحكيم على سيئات عصره ، وأن يسأله فى هذا سؤال المتهم عن وزره ، فأجابه

وهو لا يفقه ما يعنيه :

عن هذا أسألك أيها الحكيم العليم!! فهى معضلة من معضلات الزمن الأخير نسأل عنها وليس لها من مجيب :

فشك الشيخ غير قليل . وغاب عن صاحبه فى تأمل طويل ، وكأنما أفاق من غيبوبة علوية حين أقبل يقول :

« إنما الحرب يا بنىَّ حيلةُ من ليست له حيلة ، يقدم عليها من يأمن شرها أو من يخاف جميع الشرور فلا يبقى له ما يأمل . . . وإنما يستميت فى الخصومة من يخاصم الأقدار وإن حسب أنه مخاصم إخوانه من بنى الانسان : إنما يستميت فى خصومته من يطلب الدوام لشىء لا يمكن دوامه أو يطلب التبديل لشىء لا يمكن تبديله ، فهم يحاربون القدر ولا يحاربون أبناء آدم .

ومن حارب القدر يابنى لم يحاربه بنصف عزمه ولا بنصف سلاحه ولا بنصف رأيه : من حارب القدر فأيسر جهده أن يستجمع ، وأن يستميت ، وأن يخسر فى الجانبين وينهزم فى الصفين

وهؤلاء أبناء أندلس يريد فريق أن يعيد أمس ، ويريد فريق أن يستعجل الغيب ، وليس هذا ولا ذاك فى يد إنسان ، ولو كان فى يد إنسان لكان ، ولم يستعر بينهم كل هذا الشنآن

قال التلميذ : ألا دواء لهذا الشنآن بين الفريقين ؟

قال الحكيم : حتى يفقد كلاهما كل قوته ، أو يفقد كلاهما نصف اعتقاده . فاذا انقصم السيف الأخير فى أيدى هؤلاء وهؤلاء فهناك رجاء فى سلام ! وإذا شك كلاهما فى حقه واعتقد أن نصف الحق معه ونصف الحق مع خصمه فهناك رجاء فى سلام . . . أما وهناك بقية من قوة فى الصفين وإيمان بالحق الكامل فى الجانبين

فلا سلام ولا رجاء فيه !

قال التلميذ وكأنه يمزح :

أو لا يسفر الشيخ بينهما ليظهر لكليهما نصف باطله ونصف الحق عند خصومه ؟

ففطن أبو العلاء لموضع المزاح من كلامه وتمتم بين شفتيه :

بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد

ولأفسدُ من ذاك أن أذهب شفيعاً فى حرب الأقدار ، وسفيراً بين الأعصار والنار . . .

المرأة

نشط الشيخ فى ذلك اليوم للبحث والمساجلة ، فأقبل على تلميذه يسأله : ألا تحدثنى يابنى عن تلك الفلسفات التى ذكرت لى أنهم يدورون بها حول المرأة فى الغرب الحديث ، وفى زمانكم هذا الأخير ؟ فقد أنبأتنى بالقليل منها يوم حدثتك برأيى فى جنديات الأندلس المقاتلات ، وقد لاح لى مما أنبأتَ أن فلسفات القوم فى هذا المجال تشتمل على كثير ، وأن آراءهم اليوم يوشك أن تنصرف كلها إلى فلسفة الزواج وفلسفة العشق وفلسفة الاباحة وماشا كل ذلك من فلسفات ، وإنى — كما تعلم — امرؤ قد عنيت بهذا الأمر وأفرطت فى العناية به حتى لزمت

الرهبانية ، فماذا يقول القوم فيه ؟ وعلام يقع الخلاف ؟ وكيف يختلفون ؟

قال التلميذ : إنى لأستحى أن أقوم من الشيخ مقام الأستاذ ولو فى هداية الطريق ، فكيف بالهداية فى الحكمة وأقاويل الحكماء !

قال أبو العلاء : اعتبرها يابنى هداية طريق فى بلد أنت به أعلم وأنا فيه غريب ، فالغربة قد تكون فى الزمان كما قد تكون فى المكان ، وأنت صاحب الدار يابنى فى زمانك ، فقل ولا عليك من مقام الأستاذ ومقام التلميذ . ألست أنا القائل :

رب شيخ ظل يهديه إلى
سبل الحق غلام ما احتلم

فقل يا بنى ولا تتحرج . وإن أبيت إلا مقام التلمذة فاقنع منها اليوم بالطاعة فيما أدعوك إليه .

فلم يسع التلميذ إلا أن يجيب سؤال الشيخ ، وأنشأ يقول وهو متلعثم فى المقال :

هذه الفلسفات يا مولاى كثيرة كما لاح لك من بوادر الاشارة العارضة ، فمن أصحابها من يجعل حبّ المرأة الحبَّ كلَّه ومرجعَ الأهواء بحذافيرها . ويزعم أنه حب يضمره الطفل فى طبعه وهو يرضع من ثدى أمه أو يحبو إلى لعبته أو يتواثب مع لداته ، وإنه ما مِنْ خبيئة يبطنها الانسان إلا ومناطها هوى من هـــذه الأهواء مكبوت ، ونزعة من هذه النزعات يختلف فيها التفسير والتأويل ، وقد تفصح عنها الأحلام التى يناجى بها الانسان سريرته فى المنام ، وإن كانت المناجاة هنالك بالرموز والأشكال دون المعانى والأفكار .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من نشأ على المذهب الأول ثم عدله ونقحه باضافة حبِّ القوة إلى حب

المرأة ، أو باضافة المجد والجاه إلى الشهوة والغرام .

ومنهم من يقول إن الأخلاق ينبغى أن تختلف بين أفراد الرجال والنساء كما تختلف أنواع الغذاء ، فالناس فى حاجة إلى غـذاء متشابه العناصر متقارب التركيب ، وليس من طعام مع هذا هو صالح لجميع الأبدان مطلوب فى جميع الأحوال ، فكذلك الأخلاق فى جملتها من عمل الخير والدعوة إلى الصلاح قريبة العناصر متشابهة الأوصاف ، ولـكنها قد تختلف مع اختلاف المزاج كما يختلف الطعام على حسب البنية ، حتى يكون دواء لهذا ماهو سم قاتل لذاك . فليس لجميع الناس قانون واحد ولا خلق واحد ولا طعام واحد . بل ينبغى أن يحرم على أناس ما يباح لآخرين .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو إلى الاباحة لأنها حاله الطبيعة ، ومنهم من ينكر عليه هـذا الزعم

فيقول إن الاباحة هى أبعد الأحوال عن طبيعة الاحياء :
ألا ترون إلى العجماوات تمانع وتقاتل ثم تعتصم بالعفة والزهادة طوال العام ؟ ألا ترون إلى قبائل الفطرة الأولى كيف تحوط العلاقة بين الرجل والمرأة بالمراسم والشعائر وكيف تحفها بالتمائم والشعوذات ؟؟ فالطبيعة أحجى أن تكون إلى جانب الامتناع والاعتصام دون الاباحة والانطلاق ، ولا سيما فى غرائز الحب ودوافع الشهوات . والحضارة قد علمتنا أنه حيث تكون القيود فى الحب تكون نهضة الشعوب ، وحيث تكون الاباحة فى الحب يكون الركود ثم الدثور .

• ومن أصحاب هـذه الفلسفات من يدعو إلى الاباحة لأنها الحل الصالح عنده لمشكلات الأمم فى العهد الحديث . فالناس يتقاتلون لأنهم يتنافسون على المال ، والناس يتنافسون على المال لأنهم يشترون به الشهوات

والمظاهر التى هى كالأشراك لاقتناص النساء . فاذا بطلت قيود الجنسين بطل فى زعمهم كل ذاك وخفت حدة الزحام والعداء وقلت بواعث الفتنة والاغراء

ومنهم — وقد كان رئيساً لحكومة كبيرة فى دولة عظيمة — من يوصى الرجل أن يجرب كثيراً من النساء ويوصى المرأة أن تجرب كثيراً من الرجال قبل الايواء إلى حرم البيت وحصن الزواج . فان الرجل والمرأة إذا قضيا الشطر الأول من الحياة فى التطواف والتجوال سكنا إلى الزواج وهما جانحان إلى استقرار يعين على الوفاء ، وقناعة تعين على العصمة ، وأصبحا زوجين رشيدين وأبوين صالحين مدى الحياة

قال المعرى : حسبك ! حسبك !

قال التلميذ : نعم حسبى حسبى . فقد تعبت من « دور » الأستاذ وشاقنى أن أصغى إليك إصغاء التلميذ

فخذ دورك الساعة يا مولاى وقل لنا ماذا ترى فى هـذه الآراء ، وماذا تقول فى هذه الأقاويل

ووجم الشيخ قليلا ثم أنشد من كلامه القديم .

لو أن كل نفوس الناس رائية

كرأى نفسى تناءت عن خزاياها

وعطلوا هـــذه الدنيافما ولدوا

ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ثم راح يقول :

إن ما سمعته يا بنى بعضه سديد وبعضه حق وبعضه هراء

حق إن المرأة هوى النفوس وفتنة المطامع

والمرء ليس بزاهـد فى غادة

لكنه يترقب الامكانا

وانها تفتن من هجر الدنيا كما تفتن من غاص

فى غمارها وتقلب فى أوزارها

راحت إلى القس بتقريبها

وبيتهـــــا أولى بقربانها

وزارت الدير وأثوابها

ضامنـــــة فتنة رهبانها

وإنها مقياس الحياة لا يعافها إلا من عافته الحياة :

وإذا الفتى كره الغوانى واتقى

مرضا يعود وضره ما يطعم

فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذب

من قال عنـه يبيت وهو منعم

وانها خفية المسارب فى دخائل الشهوات :

وإنما الخود فى مساربها

كربة السم فى تسربها

وانه لا يؤمن منها على صغير ولا يؤمن عليها من صغير :

إذا بلغ الوليد لديك عشراً
فلا يدخل على الحرم الوليد

كل هذا حق وكل هذا سديد فى مذهب صاحبكم الحديث وفى مذهب الحكمة القديم ، إلا ان المرأة ليست كل مايثير النفس ويوسوس فى الضمائر وينبعث مع الغواية ، وليست كل ما رامه الرجل

وإنما رام نسوانا تزوجها
بما اقتراه وأموالا تموّلها

أو قل مرة أخرى :

وإنما رام عزاً فى معيشته
أو خاف ضربة ماضى الحد قلام

أو شاء تزويج مثل الظبي مُعامة

للناظرين بأَسوار وأَعـــلام

ذلك قوام الرأيين ووفاق الخلافين . أما الرأى فى الزواج :

فلا يتزوج أخو الأربعـ

ـين إلا مجربة كهلة

على إننى أقول كما كنت أقول :

إن الأوانس أن تزور قبورها

خير لها من أن يقال عرائس

وأقول كما كنت أقول :

تزوَّجَ بعد واحـــدة ثلاثا

وقال لعرســه يكفيك ربعى

فيرضيها إذا قنعت بقوت

ويرجمها إذا مالت لتبع

ومن جمع اثنتين فما توخى
سبيل الحق فى خمس وربع

وأقول كما كنت أقول :

خير النساء اللواتى لا يلدن لكم
فان ولدن فخير النسل ما نفعا

وأقول كما كنت أقول :

وأصبحت فى الدنيا غبيناً مرزّءاً
فأَعفيت نفسى من أذاة ومن غبن

ثم أقول كما كنت أقول :

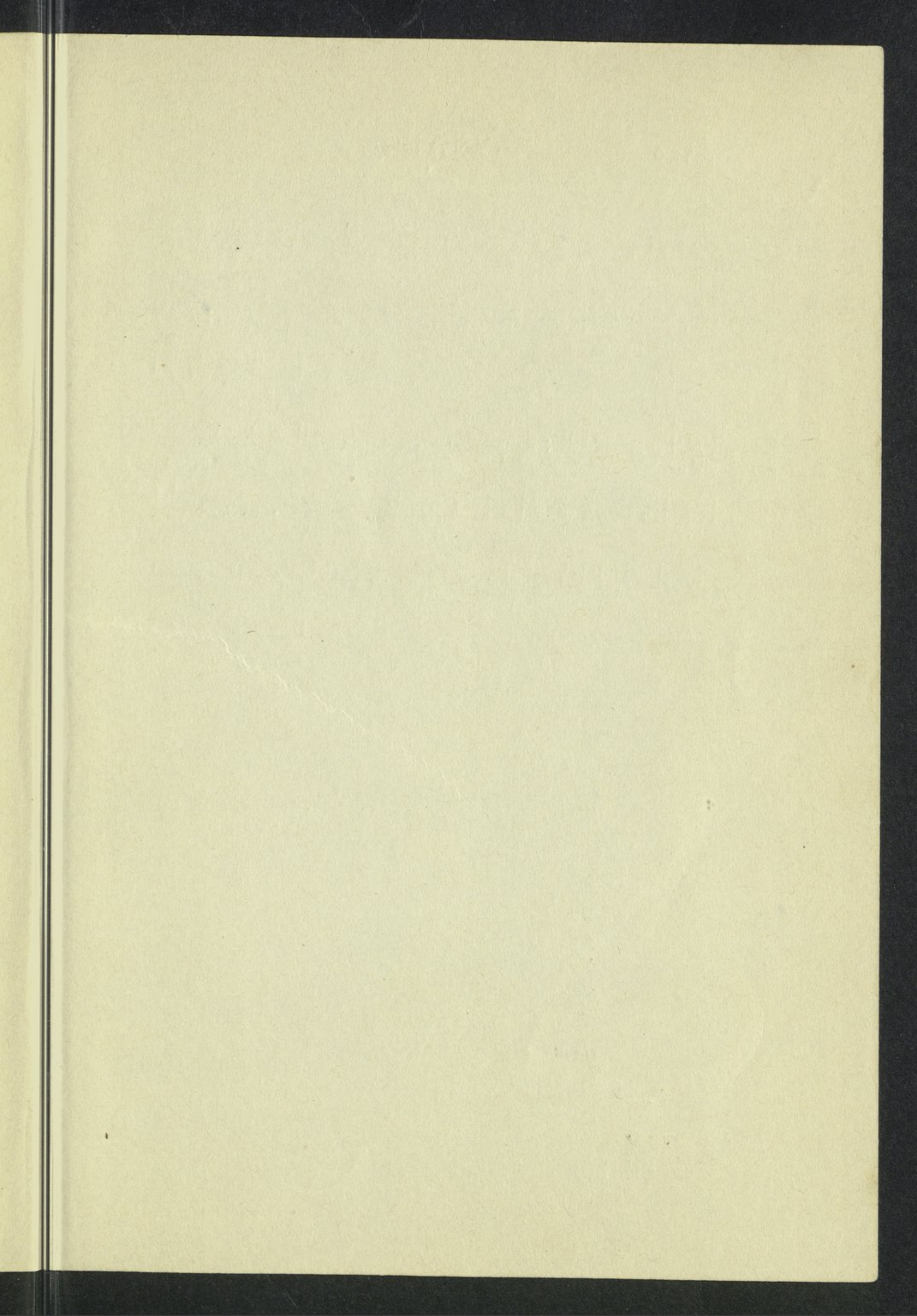
شر النساء مشاعات غدون سدى
كالأرض يحملن أولاداً مشاعينا

ولا أكتمك مع هذا انى

تنازعنى إلى الشهوات نفسى
فلا أنا منجح أبداً ، ولا هى

فأسرع التلميذ يمتحن الأستاذ ، ويهمس فى أذنه قائلا : « وفيم المنازعة ونحن فى بلاد الغرب والشيخ قد أفرط فى الصيام »

فقهقـه الشيخ وهو يصيح به : اليك عنى أيها الخبيث . . قد خرجنا من هـذه المحنة وصارعنا فيها أستاذك القديم ابليس . . . والله يعلم أكنا فيها صارعين أو مصروعين ! ذلك سر مكتوم وحديث مختوم . . !



الحكيمانِ

كان آخر الخطباء فى الجمع العظيم يقول :

« إنها مصادفة عجيبة ولا ريب . فهل أقول إنها مصادفة سعيدة ؟ أخشى أن أغضب الحكيمين المحتفى بهما إذا أنا قلت ذلك ، فليس المعرى حكيم المشرق ولا شوبنهور حكيم المغرب ممن يدينون بالسعادة ، وليس اجتماعهما اليوم فى عالم الذكرى من دواعى التفاؤل والاستبشار . . . فالعالم مقبل على خطوب وكروب وأهوال وحروب ، ولم يكن مذهب التشاؤم قط أدنى إلى الصدق والاقناع مما كان فى هذا العصر المرهوب الجوانب المحذور العواقب ، فاذا سعد الحكيمان بتحقيق

ما رأياه وإثبات ما قرراه وإنجاز الوعيد وتقريب البعيد ، فهو اجتماع سعيد ! »

غد — وهو الثانى والعشرون من شهر فبراير — هو تمام مائة وخمسين عاماً مضت على مولد الامام الأكبر فى مذهب التشاؤم بين الغربيين ، وهو أرثر شوبنهور . فما أعجب المصادفة التى جمعت بينه وبين الامام الأكبر فى هذا المذهب عند الناطقين بالضاد على ملتقى ألف عام من مولده المجيد إن لم يأذن لنا أن نقول : السعيد !

« أنقول إن روح العالم فى شدائده وبأسائه قد استحضر روحيهما لخضرا ، وقرب بين أفقيهما فاقتربا ؟ أنقول إنها مؤاساة من عالم الخلود لعالم الشقاء والبأساء ؟ أنقول إنهما نذيران أو بشيران ؟

« على أننا نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من

قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم وإن حقق لنا مخاوف المتشائمين .

« فالتشاؤم — كالتفاؤل — إنما يكون مع الحب والاهتمام ، أو مع الظن الحسن والأمل المشبوب ، تجىء خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولا أو شبيهاً بمعقول . أما إذا غلب اليأس من البداية فلا تشاؤم ولا إخلاف ظنون .

« الذى يهجو المرأة يحبها كالذى يثنى عليها ، والذى يملأه الغيظ منها كالذى يملأه الشوق إليها : كلاهما يعتد بها ويشتغل بأمرها ويحسب الحساب لاقبالها وإعراضها . أما الذى يلهو بها فلا شوق ولا غضب ، ولا فرح بلقائها ولا حزن لغيابها ، فليس ذلك من العشاق المدلهين ولكنه من طلاب الفراغ العابثين .

« كذلك الحياة فى زماننا قلما تتسع فيها النفس

لتفاؤل أو تشاؤم ، وقلما ترى فيها إلا مُزجيا لفراغ أو لاهيًا بحاضر مبتور ، لا يرجع إلى ماضيه ولا يترقب عقباه .

« كانت الحياة حليلة نحاسبها عَلَى الأمانة والخيانة ، وكانت فى بعض أجيالها عشيقة نحاسبها على العطف والمودة ، فأَصبحت عندنا بنتًا من بنات الهوى لا نحاسبها على شىء ولا نغار عليها من أحد ، ولا ننحى عليها بلوم ولا نخصها بثناء .

« فنحن كما قلنا : نكرم زماننا هـذا ونكبره ونرفع من قدره إذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم . ليتنا كنا متشائمين ، وليتنا نحفل بالحياة .... ما أخالنا نخطىء إذ نقول إن تشاؤم أبى العلاء وتشاؤم زميله فى الغرب سعادة بالقياس إلى ما نحن فيه ... ! »

***

كان هذا القائل آخر الخطباء فى الجمع العظيم الذى التقى من بلاد المشرق والمغرب لتحية الحكيمين فى إحدي العواصم . فكان فى هذه التحية من التزكية للمذهب المحتفى بصاحبيه ، كما كان فيها من المناقضة له والتشكيك فيه ؛ لأنها جاءت فى إبانها دليلا جديداً على اتساع أفق الحياة واستغراقها لجميع ما يقال فيها من تشاؤم وتفاؤل ، كما تهضم البنية القوية ما ينفع وما يضير .

وقد خرج حكيم المعرة وهو يعجب ويسأل تلميذه من فرط العجب .

« أحقٌ أن التشابه بينى وبين الرجل عَلَى هذا المدى من القرب والتجاور ، مع ما بيننا من مسافة الزمان ومسافة العنصر ومسافة الفكر واللسان ؟

قال التلميذ ، بل هو أقرب من ذاك يا مولاى .

فلا عجب أن يتفق الرجلان فى النظرة إلى الدنيا على تباعد الجيرة وتفاوت السيرة ، ولكن العجب العاجب أن يتفقا على التفصيلات ويتشابها فى الدقائق والعرضيات ، وفيما ليس هو من جوهر المذهب ولا من الضروريات التى يقضى بها التوافق فى الأصول ، والتماثل فى العقول .

قال أبو العلاء مستفهما : ومثال ذاك ؟

قال التلميذ ، مثال ذاك أن الرجل يقول : إن المرء يعيش إلى السادسة والثلاثين من عمره كما يعيش التاجر الذى ينفق من ربحه ونوافله ، ثم ينحدر وينقص ولا يزال فى نقصه وهبوطه حتى ينفق من رأس ماله إلى يوم أفلاسه ووفاته . وأنت يا مولاى تقول :

إذا ما تقضى الأربعون فلا ترد
سوى امرأة فى الأربعين لها قسم

فإن الذى وفى الثلاثين وارتقى

عليهن عشراً للفنـاء به وسم

زمان الغوانى عصر جسمك زائد

وهن عناء بعـد أن يقف الجسم

والرجل يقول بغلبة الارادة على الفكرة ، وضياع العقول مع الشهوات ، وأن العقل يكف عن العمل ، وأن العمل لمن لا يعقلون ، وأنت يا مولاى تقول :

وتفـكّر الانسان يثنى غربه

ويرد جامحه إلى الاقصار

وتقول :

إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم

إلى الغى طبع أخذه أخذ ساحب

وتقول :

وقد غلب الاحياء فى كل وجهة

هواهم ، وإن كانوا غطارفة غلبا

وتقول :

والعقل زين ولكن فوقه قدر

فما له فى ابتغاء الرزق تقدير

والرجل يرى ان النوم سلفة مستعارة من الموت ، وهذا رأيك فى أبيات كثيرة منها :

ونومى موت قريب النشو

ر، وموتى نوم طويل الكرى

ومنها :

وموت المرء نوم طال جداً

عليه ، وكل عيشته سهاد

ومنها :

وفضيلة النوم الخروج بأَهله

عن عالم هو بالأذى مجبول

والرجل يعطف على الحيوان ، ويؤثر صحبة الكلب على صحبة الانسان ، وأنت مع تحريمك أكل الأحياء تقول فى الكلب خاصة :

سُببتَ بالكلب فأنكرته

والكلب خير منك إذ ينبح

والرجل يقول إن الارادة تورث من الآباء ، وان الذكاء يورث من الأمهات ، وقد أوشكت يا مولاى أن تقول ذلك حين قلت :

كأنّ حواء التى زوجها

آدم لم تلقح بشخص أريب

قد كثرت فى الأرض جهالنا

والعاقل الحازم فينا غريب

والرجل يرفع من أقدار نساك الهند، وأنت كذلك ترفع من أقدارهم ، ويذكر مذاهب المجوس فى الخير والشر ، وأنت تذكرها كما جاء فى قولك :

فكر « يزدان » على غرة

فصيغ من تفكيره « اهرمن »

والرجل يقول فى الزمان : « نحن نُسلَب يوماً كل مغرب شمس » ويقول فيه : « إن وجودنا مستقر على الحاضر الذى ما ينى أبداً متسرباً طائراً فلا بد له — أى لوجودنا — أن يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل فى الوصول الى الراحة التى ينشدها ، مثلنا فى ذلك مثل المنحدر من جبل عال فهو يسقط إذا حاول الوقوف

وذلك شبيه يا مولاي بقولك :

نفَس بعـــد مثله يتقضى

فتمرّ الدهور والأحيان

وقولك :

أما المكان فثابت لا ينطوي

لـكن زمانك ذاهب لا يثبت

وغير ذلك التشابه كثير ، يدل عليه تناقض التعبير بينكما كما يدل عليه التقارب فى التفكير .

فالرجل يسأل : « ما هو التواضع إلا أن يكون ذلة مزيفة يلتمس بها المرء غفراناً لفضائله ومزاياه فى عالم مكظوظ بالحسد والضغينة ؟ »

ومولاى قد تلفع بالتواضع كثيراً لاتقاء الشر والملاحاة ، وخلع التواضع كثيراً فى قصائد الفخر والمباهاة ، وشغلته هذه المسألة من حيث شغلت صاحبه فى جانبى الاقرار والانكار ....

قال أبو العلاء : ان هذا لعجيب ، وان الرجل إلىَّ لجد قريب ، وما أحسبها إلا قرابة فى الطباع لا قرابة في الرأى والاطلاع ، فان تشابه الطباع هو الذى يوحى القول الواحد إلى أفواه الكثيرين ، أما المتشابهون فى العقول فقلما يتفقون ، وقد يتنابذون ، لأنهم متشابهون!!..

حكم وحكمة

كان أبو العلاء قد أقام فى بلاد الأنجليز بضعة أيام ، شهد فى خلالها مجامع العلم والأدب ومعاهد الفن والرواية ، وسمع الكثير من أنباء السياسة العالمية ، وأنباء الأزمة التى أخرجت وزير الشؤون الخارجية ، وأعجبه نمط الحكم وانتظام الأمور بين الحكام والرعايا ، فجلس يحاور تلميذه وتلميذه يحاوره ، ويأبى التلميذ إلا أن البرلمان هو أساس هذا النظام وسبب هذا الاعتدال فى تدبير الأحكام ، ويأبى الحكيم إلا أن الأمة التى تنجب البرلمان تعرف الحكم الصالح بغير برلمان ، فلو لم يكن فيها نواب وناخبون ، لكان فيها الحكم كما ينبغي

أن يكون ، لأنها هي المرجع وهى الأساس ، وكل ما عدا ذلك فهو صور وأشكال ، يأخذها أناس وينبذها أناس .

قال التلميذ : بل الرأي هنا للكثرة من سواد الأمة ، وما على الحكام إلا أن يطيعوا ما يأمر به هؤلاء .

قال أبو العلاء : وهل للكثرة من السواد رأى ؟ ان الله يقول : « ولكن أكثرهم لا يعقلون » ويقول : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

قال التلميذ . ويقول : « وأمرهم شورى بينهم »

قال أبو العلاء : ونسيت أنه جل جلاله يقول : « فاسألوا أهل الذكر » ويقول « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟

قال التلميذ : فماذا يسمى الشيخ هذه الحكومة التى يسمونها هنا بالحكومة النيابية ؟

قال الحكيم : أسمها الحكومة النيابية واختلف ما شئت فى معنى النيابة وفيمن ينوب وفيمن ينيب . فالرأى لأهل الرأى والحكم لأولى الحكم ، والطاعة لمن يستطيعونها ، ولا مشقة فى الطاعة على سواد الناس إذا صلحت الأحوال وتقابلت الأهواء ، فلا غلبة من هنا ولا هزيمة من هناك ، ولا يأس من تبدل الأمور كلما اشتدت سطوة فريق واشتدت معها شكاية فريق .

قال التلميذ : أكاد يا مولاى أن أتابعك فى قولك وإن كنت تنظر إلى زمان غير زمانك ، فالحق اننا هنا بين أمة توازنت جوانبها فقل فيها الجور وكثر فيها الاعتدال : ان طغى النبلاء صمد لهم كبار التجار ، وإن تجبر العلية أو تمرد السفلة صمد لهم أوساط الناس ، وأن

تحكم رجال الدين قابلهم رجل العلم ، وإن صال الجند والقادة فى البر فهناك الجند والقادة فى البحار : تقابل وتوازن لا يطغى فيه جانب على جانب ، ولا فضل فيه لتدبير فئة على فئة ، وإنما هو من صنع الجغرافيا ومن صنع التاريخ ومن صنع الفئات كافة ، وما داموا على هذا فهم فى صلاح دائم ، وأخشى أنهم لا يدومون .

وان التلميذ ليوشك أن يمضى فى مقاله إذا بحاجب الباب يحمل اليه رسالة من وزير الشئون الخارجية المستقيل ، وإذا بالوزير يطلب الاذن فى مقابلة الحكيم ، وإذا بالحكيم يسأل التلميذ ويعجب : ما خطب الرجل وهو فى أزمات محرجات لا يفرغ فيها الساسة للأدب والأدباء ولا للشعر والشعراء ؟ والتلميذ يشرح له بعض مايعلم من شأن ذلك الوزير ، ومن شؤون سائر الوزراء فى تلك البلاد .

قال التلميذ فيما قال : انه يا مولاى يعرف اللغة الفارسية .

قال أبو العلاء : ولـكنى لا أعرفها .

قال التلميذ : أعلم ذلك ، ولـكنه يا مولاى قد اطلع على شعر حكيم الفرس الخيام ويعنيه أن يلقى حكيم العرب أبا العلاء ، وهو فيما يحسبه بعض أدباء الغرب أستاذ الشاعر الفارسى ، وفاتح هـذا الطريق فى آداب المشرقيين .

قال أبو العلاء : أو كثير من وزراء هـذا البلد من يعنى بهذه المطالب ؟

قال التلميذ : غير قليل . فمنهم من يكتب فى الحـكمة والعلوم ، ومنهم من يكتب فى نظام الشعوب وتدبير الممالك ، ومنهم من يكتب فى الخطابة والتاريخ ، ومنهم من يكتب فى الطير والسمك ، ومنهم من يكتب

فى مشاهد الطبيعة ومحاسن الفنون ، ومنهم من ينقد أهل الفن والأدب فيتفق له من صائب النقد ما ليس يتفق لرجال هذا المقام وفرسان هذا الميدان كما يقولون : أيذكر مولاى تلك الروايات التى شهدناها فى معاهد التمثيل فأعجب الأستاذ ببعضها وسأل عن كاتبها ؟

قال المعرى : تعنى الرجل المسمى «برناردشو»

قال التلميذ : اياه أعنى

فعاد المعرى يسأل : وما شأنه فى هذا السياق ؟ أهو وزير من أولئك الوزراء ؟

فأجابه التلميذ : كلا بل هو أديب كتب عنه عشرات من الأدباء ، فلا أذكر أن واحداً منهم أصاب فى نقده ما أصاب الوزير الذى قال فى شخوص رواياته : «أنها تظهر فى الحياة لما تقول لا لما تعمل أو تكون ، ومع هذا هى صالحة للحياة»

قال أبو العلاء : صدقت يا بني فما أعرف لذلك الكاتب المقوال صفة أوجز ولا أصدق من هذه الصفة... فمن يكون الوزير القائل هذا ؟ أهو زائرنا اليوم ؟

قال التلميذ : ذاك يدعى شرشل وزائرنا يدعى ايدن ، وكلاهما في ميدان الأدب ومناصب الحكم سواء ، وإن كان هذا أدنى إلى المسالمة وذاك أدنى إلى الصرامة والنضال .

فأطرق المعرى هنيهة ثم أدار وجهه إلى تلميذه وقد اطمأن إلى حديثه ، وقال له « ما أحسب اشتغالهم بهذه المطالب إلا من الخير . فان التفرغ للحكم — بل لعمل واحد كائنا ما كان — سبيل إلى العنت وضيق النظر وقلة السماحة ، ومن تعددت مطالبه كان خليقاً أن يتسع أفقه للخصومة والخلاف ، وأن يعود وهو أدنى إلى المودة والانصاف

ثم هتف بالتلميذ : لقد أطلنا على الرجل لحظات الانتظار ، فأسرع ! أسرع إليه بالدعوة ، وبالاعتذار .

ويطول سرد الحديث الذى جرى بين الحكيم والوزير ، فحسبنا منه ما استطرد إلى السياسة وتدبير الشعوب . فقد أفاض الرجلان في مقاصد القول حتى استنفدا منها كل مايخوضان فيه ويشاركان فى مناحيه ، وإنهما ليهمان بالافتراق إذ يقحم التلميذ سؤالا كان من حقه أن يُسأل لولا أن شغل عنه المتحدثان بأفانين الأدب والثقافة ، ولعل التلميذ قدعز عليه أن يرى فى سياسة العصر رأيا لا يقره عليه شيخه وأستاذه فاندفع يقول :

ألا يسأل مولاى زائرنا الكريم فيما طرقناه من حديث الحكومة والبرلمان ؟ فما ينبئنا مثل خبير !

ووافق السؤال هوى من نفس الحكيم فأوجز الأمر للوزير وأنصت يترقب منه الجواب

قال الوزير : سر التوفيق فى حكومة هذه الأمة أن يتم فيها الأمر الجليل كما يتم الأمر الصغير وليس فيها من يعتقد أنه يريده كل الارادة أو يأباه كل الاباء ، وانهم قد أحسنوا الخصومة فى اللعب فأَحسنوا الخصومة فى الجد ، فالغالب منهم والمغلوب فى رياضة لاتوغر الصدور ولا تحفظ القلوب

خلیفه دانی

قضى المعرى أياما فى البلاد الانجليزية وهو يستمع إلى الأنباء التى تفيض بها الصحف رثاء لشاعر الطليان « جبريل دنزيو » وتعقيباً على أدبه ومغامراته فى الحب والحرب والسياسة . فسأل صاحبهُ : من يكون الرجل الذى يلغطون به هـذا اللغط فى بلاد ليس بينها وبين بلاده صفاء ، ويوشك أن يستعر بينهما لهيب الجفاء والبغضاء ؟

قال صاحبه : هو خليفة دانتى !

قال المعرى : الآن زدتنى به معرفة ! ومن دانتى يرحمك الله ؟

فثاب التلميذ إلى نفسه وهو يعتذر من فلتات وهمه ! فقد طالما اقترن اسم المعرى واسم دانتى فى قرا آته حتى حسب أنهما متعارفان ، وأن المعرى لايجهل اسم قرينه ولا يغيب عنه أثره وتاريخه ، فقال :

حسبتك يامولاى تعرفه وتعرف الصلة بينك وبينه ، فقدزعم بعض الأدباء من أبناء الأندلس المحدثين أنه تلميذك وأنه اقتبس منك روايته المقدسة ، لما بينها وبين رسالة الغفران من المشابهة . فهى رحلة بين الأرض والفردوس والجحيم ، ومقابلة للأدباء وذوي الشهرة من الصالحين والغاوين ، وحكاية لما يصنعون فى الدار الآخرة قياسا على ما كانوا يصنعون فى الدار العاجلة وقد سبقنى الوهم حتى كدت أسألك : أصحيح أنه أخذ منك تلك الرواية ؟ وإنما الوجه أن أسأل « دانتى » لو لقيته كما لقيتك ، فهو أقمن بجواب ذلك السؤال

قال المعرى : وماذا فعل خليفته ؟ أتراه كتب رسالة أخرى على نمط رسالة الغفران ؟

قال التلميذ : كلا يامولاى وإنما يسمونه خليفة « دانتى » لأنه أشهر شعراء الطليان فى العالم الحديث كما كان دانتى أشعرهم فى زمانه ، أما مادة الأدب فلا مشابهة بينهما فيها ولا مقاربة ، بل لعلهما أقرب إلى المناقضة والمباينة فى كثير من الأقوال والنزعات والأخلاق

واسترسل التلميذ فى شرحه وهو لا يحسب إلا أن الحكيم مسترسل فى صمته ليستزيده من الشرح والتفصيل ، فجعل يقول : لقد كان دانتى عُذريا فى هواه متديناً فى شعره ، صارما فى حياته . أما خليفته فمذهبه فى الحب إشباع الشهوات واستنفاد متعة الحياة ، ومذهبه

فى الدين مذهب أهـــل العصر من الشك والاباحة ، وسجيته أقرب إلى العربدة منها إلى الصرامة و إلى الضحك الثائر أقرب منها إلى العبوس الرصين ، وكان دانتى أحرى بالحظوة عند النساء ولكنه لم يحظ منهن بطائل . أما خليفته فهو بيّن الصلع والقماءة ولكنه مجدود عند الشواذ من بنات الفن ورائدات الغرائب والبدوات . . . على أنه كان من الشهوانيين بالأعصاب ولم يكن من الشهوانيين باللحم والجسم ، وكانت لذاته رعدة تهز الاوصال ولم تكن أكلة يملأ بها ماضغيه ويحشو بها أحشاءه ، فهى وليدة القلق والحركة وليست وليدة الترف والاستنامة ، وكأنها قد أصبحت بذلك فى زعمه أقرب إلى الطموح والمثل الأعلى ، وأبعد من الغواية والاسفاف .

فقاطعه المعرى منشداً :

جهلت أقاضى المصر أكبر مأثماً

بما ناله ، أم شاعر يتغزل

ألهذا يابنى قد شهروه وقدروه ، وبهذا يابنى قد أكبروا ذكره وسيروه ؟

فأحس التلميذ لهجة التأفف والاستنكار فى سؤال الحكيم المعرض عن الشهوات واللذات ، وجاراه من حيث لا يشعر قائلا :

بل لعلهم قد شهروه لمغامراته فى الحرب والسياسة كما شهروه بمغامراته فى الحب والغواية

قال المعري : وماذاك ؟

قال التلميذ : إنه كان من أهل بلد صغير فصلوه من موطنه الكبير ، فلما كانت الحرب التى يسمونها بالحرب العظمى طمع فى رجعة ذلك البلد وسعى إلى

الوصل بين منشأ أهله ومستقر قومه ، فحالت الحوادث دون ما طمع فيه وسعى اليه ، فحمل السلاح وغزا ذلك البلد وأقام نفسه حاكماً عليه وأبى أن يبرحه إلا وهو قتيل ، بل جعل يصيح على مسمع العالم كله : أنه لن يبرحه وهو قتيل ، لأنه أقسم ليموتن فيه وليدفنن فى ترابه ، بل أقسم ليكونن هناك نصيراً لكل من أضاع وطنا أو غصب على وطن ، ونادى بدعوته فاذا هى كما قال : « أعظم الدعوات وأجملها وأشدها نقمة على خسة العالم الشائخ وهتره وتخريفه فى هـــذه الأيام ، لأنها تمتد من إيرلندة إلى مصر ، ومن مصر إلى الروسيا فأمريكا ومن رومانيا إلى الهند ، تجمع الشعوب البيضاء والشعوب ذات الألوان ، وتصلح بين وحى الانجيل ووحى القرآن ، وتمشى بالوئام بين أتباع عيسى واتباع محمد ، وتمزج فى إرادة واحدة كل ما وسعته الأمم فى

نخاعها وفى عروقها من ملح وحديد لامداد النفوس بغذاء العمل والحركة. وسننتصر لامحالة! وسينضوى الثائرون من جميع الأمم بين جميع أبناء آدم إلى أعلامنا، وسينتضى العزل المظلومون سلاحنا، وسندفع العنف بالعنف والشدة بالشدة، ونشنها غارة جديدة كغارة الصليبين لنصرة المساكين وإغاثة الامم الفقيرة المنزوفة، ونرسلها شعواء على المرابين والمبتزين الذين غنموا بالأمس أسلاب الحروب ويغنمون اليوم أسلاب السلام»

قال المعري: أضغاث أحلام، وشطحات أوهام... ثم ماذا كان من شأنه فى ذلك البلد، وماذا كان من شأنه مع المظلومين والمستضعفين؟

فابتسم التلميذ وقال: هو ما تقول أيها الحكيم. فما هى إلا أضغاث أحلام وشطحات أوهام، وما هو إلا

أن تبدل الوزراء فى حكومة بلاده حتى خرج حيا من البلد الذى أقسم ليموتن فيه وليدفنن فى ترابه ، وما كان قد دخله من قبل إلا وهو على تواطؤ مع قادة الجيش ورجال الدولة ، فلم يمنعوه ولم يقفوا فى طريقه .

فابتسم الحكيم ابتسامته المريرة وعاد يسأل وكأنه يعلم جواب ما سأل عنه قبل الافضاء به اليه :

والمساكين المستضعفين ؟

فقهقه التلميذ ناسياً أدبه و وقار شيخه ، وقال : أما المساكين المستضعفون فقد جردت عليهم حكومته جيشاً يزيدهم مسكنة وضعفا . . .

فتعجل الشيخ سائلا ؟ فماذا صنع خليفة دانتى وخليفتى يرحمك الله ؟ هل أعطاهم من سلاحه ماينتضونه ؟

قال التلميذ : بل أرسل عليهم شواظا من شعره يحض به الجيش الزاحف على حسن البلاء وتشديد النكير .

فوجم المعرى مهموما ولم يزد على أن قال:

صدق الله العظيم « يقولون مالا يفعلون » .

لعب العبقرية

كان أبو العلاء فى أيامه الأخيرة بين أمم الغرب

كثير السآمة من لقاء الناس ، كثير النفور من المجامع

والمحافل ، كثير الاعراض عن الجدل فى المذاهب والآراء

والفلسفات التى سمع من أخبارها فى أيام ما لم يسمعه فى

أعوام — يوم كان بقيد الحياة

« ما النحو ؟ ما الشعر ؟ ما الكلام ؟ » كما قال فى

بعض أبياته[1] . . . كلها ككل شىء فى هذه الدنيا

تعب غير نافع واجتهاد

لا يؤدى إلى غناء اجتهاد

---

(١) من أبيات يقول فيها :

أف لما نحن فيه من عنت ... فكلنا فى تحيل ودلس

ما النحو ما الشعر ما الكلام وما ... مرقّش والمسيّب بن علس ؟

وكانت للأمر فى أول عهده بالقوم جدة وغرابة فكان يحتمل المجامع والمحافل ما بقيت الجدة والغرابة ثم نصلت الطلاوة وزالت الغشاوة فاذا الجديد كالقديم وإذا العجم كالعرب ، وإذا الدنيا هى الدنيا والناس هم الناس والحياة هى الحياة ! وكل يوم دعوة ، وكل يوم خروج على غير طائل ، أو على ضجة ما كان أغنى عنها تينك الأذنين اللتين حجبهما الرجل عن الصوت بعد أن حجبت الأقدار عينيه عن الضياء

قال يوما لصاحبه : كنت أحسب الدنيا بنية مطمورة فى القدم فكلما غاص الانسان فيها كان أدنى إلى حقائقها وأسرارها ، فلما بعثت فى هذا العصر الحديث حسبتها منجما مقبلا كلما أمعن الانسان فى غده بعد يومه كان أدنى إلى تلك الحقائق والأسرار . . .

فأسرع صاحبه يسأله :

فالآن ماذا تحسبها ؟

قال أحسبها متاهة مغلقة ، فكلما رجعت فيها أو تقدمت فأنت فى مكان واحـــد من المدخل أو من المخرج ، وقد أغلقت فلا مدخل ولا مخرج هناك

وكان صاحبه أو تلميذه من أبناء العصر المنشّئين على تربيته وعاداته : كل دعوة تأتيه فأما لحضور وإما لاعتذار ، وكانت عنده دعوة من مؤتمر الفلسفة والأديان ، ينتظر أصحابها الاجابة من حكيم العرب وحكيم القرون الوسطى ، فبماذا يجيب والحكيم لا يريد الحضور ولا يريد الاعتذار ؟

تلك فرصة سانحة يوم عرض الْحكيم للدنيا وشبّهها تارة بالبنية المطمورة وتارة بالمنجم المحفور ، وتارة بالمتاهة المغلقة

فعاد التلميذ إلى المفاتحة فى أمر الدعوة إلى مؤتمر

الفلسفة والأديان ، وعاد الحكيم إلى الرفض والاعراض وزاد متهكماً ساخراً : مؤتمر يشاور فيه بعضهم بعضاً فيما يدينون به من عقيدة ! ! . . ليوشك القوم غداً أن يتشاوروا فيما يحبون من وجه جميل وفيما يأكلون من فاكهة لذة ! ! وهل يرجع المرء فيما يحبه من جمال وفيما يشعر به من لذاذة وفيما يعتقده من طمأنينة اليقين إلى مشاورة الآخرين ؟

فعلم التلميذ ان نوبة النفور أصلح هنا للخوض فى مسائل المؤتمر من نوبة الاقبال والموافقة ، واقترح على الشيخ أن يسأله وأن يدون جوابه ، وأن يستخلص من الحديث ما يلقيه على المؤتمرين ، نائباً عن الشيخ ، والشيخ معافى من مشقة الذهاب ومشقة السؤال والجواب

قال التلميذ : أأنت من العقليين يامولاى أم من الفطريين

فسأله مولاه :

ما العقليون وما الفطريون هداك الله ؟

فلخص التلميذ مذهب العقليين ومذهب الفطريين في كلمات موجزات ، وقال إن العقليين يحسبون أن الاقناع هو سبيل الاصلاح والهداية ، والفطريين يحسبون أن البداهة قبل التفكير وأن الاقناع قلما يغالب الاهواء . . . فمن أى الفريقين يا ترى يكون الشيخ الجليل ؟

قال أبو العلاء : من كلا الفريقين !

أنا من العقليين حين أقول :

كذب الظن لا إمام سوى العقـ

ل مشيراً في صبحه والمساء

وأنا من الفطريين حين أقول :

العقل يسعى لنفسى في مصالحها

فما لطبع إلى الآفات جذاب

وأنا لست من هؤلاء ولا هؤلاء حين أقول :

وبصير الأقوام مثلى أعمى

فهلموا فى حندس نتصادم ! !

قال التلميذ : خرجنا من البنية المطمورة ومن المنجم المحفور ودخلنا المتاهة المغلقة يامولاى : هـذا تناقض والحق لا يتناقض فماذا أقول للمؤتمرين من رأى الشيخ فى حقيقة الحق بين هذه الأمور ؟

فهتف به الشيخ ضاحكا وقد سرى عنه بعض السآمة : بل التناقض للحقائق يابنى لا للأباطيل . .

ان الأباطيل تتغير وتتبدل فيسهل التوفيق بينها بقليل من النقص هنا وقليل من الزيادة هناك ، أما الحقائق فهى التى تقف فى سبيلنا وقفة الصخور . لا تحيد من يمين ولا من شمال ، وعلينا نحن أن نسلك بينها ونتحول من حولها ، فان أردت أن أتحول بك فى دروبها قليلا

فاعلم إذن اننا نتبع العقل فيما هو للعقل من رأى وتفكير وتجربة ومشاهدة ، وإننا نتبع الفطرة فيما هو للفطرة من ذوق وطمأنينة وتسليم ، وإننا لا نطلب من الفطرة أن تصبح عقلا ولا من العقل أن يصبح فطرة ، وإنما نستشير كليهما حيث يشير . .

وبدا لأبى العلاء أن تلميذه المصغى اليه يستريح ويستقر على ما سمع فأدركته عارضة من لعب العبقرية ولعب الطفوله الخالدة . وهل العبقرية الخالدة إلا حياة متجددة ؟ وهل يلعب الطفل إلا لما يدركه من جدة الحياة وإقبالها ؟ فكما يرى الطفل من ينامون إلى جانبه وهو يقظان فتأبى عليه شيطنة الحياة العارمة إلا أن يوقظهم معه ويعديهم بحساس من القلق الذى يشتمل عليه ، كذلك العبقرى لا يطيب له أن يأرق وحده والناس هادئون ... فمن ثم إن شئت يقظات الأحلام والناس نيام ، وشيطنة

الخلود والفانون سادرون فى موت الجمود : قل إن شئت انها جدة تلطف جدها ، وانهـا حلاوة تخالط مرارتها ، ولكنها — بعد كل ما يقال — لا تخلو من جانب اللعب فيها وجانب الرياضة ، ولن يستحق الجد ما ليس فيـه لعب ولا رياضة

بدا ذلك لأبى العلاء فأومأ إلى تلميذه يسأله وقد كف هو عن سؤاله

أراك صدقت وآمنت . فمـا لك لا تسأل : وَمن الذى يستشير العقل ؟ ومن الذى يستشير الفطرة ؟ أفى الانسان شيء خارج العقل وخارج الفطرة فهو الذي يكون منه السؤال ثم يكون الجواب إما من العقل المسئول أو من الفطرة المسئولة ؟؟ وما الرأى إذا كان السائل هو العقل والمجيب هو الفطرة ! وما الرأي إذا كان السائل

هو الفطرة والمجيب هو العقل ؟ وما الرأى إذا وقع الخلاف على السؤال وعلى الجواب ! ؟

وفوجىء التلميذ . ولكنها مفاجأة وقعت منه موقع السرور والتأهب ، لأنه انتظر بعدها مزيداً من الاستفسار ومزيدا من التفسير . فقال : إذن أنت يا مولاى من الجبريين ؟ ! ولا أدري كيف فاتنى الساعة أن أذكر ذلك وأنت القائل :

والعقل زين ولكن فوقه قدر

فما له فى ابتغاء الرزق تقدير

قال أبو العلاء ولا تزال فيه تلك العارضة من لعب العبقرية : ولا تدرى أيضاً كيف فاتك الساعة اننى لست من الجبريين ولا من القدريين لأنى أنا القائل :

لا تعش مجبراً ولا قدريا

واجتهد فى توسط بين بينا

قال التلميذ وكأنما شملته تلك العارضة التى استولت على أستاذه فى تلك الساعة :

وهل هـذه إلا الجبرية بعينها ؟ لا تريد أن تقول إن الانسان مجبر ولا تريد أن تقول انه مخير . ولا تفصل فى المشكلة بل تدع الفصـــل فيها لعالم الغيب أو عالم الشهادة ... ماذا يكون الجبريون إن لم يكونوا هكذا غير مختارين فيما يفكرون وفيما يعتقدون ؟

فأَصغى المعري وأَعجبه ماسمع من تلميذه فأَومأ موافقاً :

« نعم هى الجبرية فى أرجوحة ذاهبة آيبة . وهى خير من الجبرية فى قيد مقيم .

قال التلميذ : —

لقد عـدم التيقن فى زمان
حصلنا من حجاه على التظنى

فهتف به المعري : ويحك انك لتتعقبنى بكلامى القديم

تعقب المذنب باقراره فهلا أغناك حفظك عن مطاردتى بالسؤال والاستقصاء ؟

فلاحقه التلميذ قائلا : المدى يا مولاى فى هذه المسائل فسيح ، والتعقب لا يضير ، وخطوة واحدة إلى الأمام أو خطوة واحدة إلى الوراء لن تضيّق النطاق ، ولن تقرب اللحاق

قال الشيخ مترقباً : ثم ماذا ؟

قال التلميذ مجارياً : ثم علام الجزاء إذا كنا فيما نحسن أو نسىء مجبرين مسيرين ؟

قال الشيخ : إذا كانت النفس تعمل الخير مكرهة فما حقها فى الجزاء ؟ وإذا كانت النفس تعمل الخير مختارة لأنها تؤثره وترضاه وتجد فيه الغبطة وفى غيره الندم والحسرة فما حقها أيضاً فى الجزاء ؟ فأحر بنا ألا نشغل بالنا بمثوبة أو عقوبة

ولتفعل النفس الجميل لأنه

خير وأحسن لا لأجل ثوابها

إن الطفل يا بنى يؤجر بالدرهم ليأكل الطعام وفيه مصلحته ونماؤه ، فاذا كبر الطفل بذل هو الدرهم وصبر على بذله وتحصيله ليأخذ به طعامه ويشبع به نهمته وأوامه ، وكذلك تصغر النفس فتؤجر على خيرها الذى تجهله ، وتكبر النفس فتبذل هى الأجر على ما تعمل من خير ، وذلك هو الجميل وذلك هو الثواب

أدين برب واحد وتجنّبٍ

قبيح المساعى حين يظلم دائن

ثم أنشد :

وليس اعتقادى خلود النجو

م ولا مذهبى قدم العالم

ثم عاودت الشيخ تلك العارضة من لعب العبقرية

الخالدة فصاح بالفتى : أسرع . أسرع يا بنى إلى مؤتمر الفلسفة والدين ، أسرع إليهم فقد طال بهم الانتظار ، فى طلب هذا الحوار ، الذى لا يستقر عليه قرار ، ولا يزيد به عدد الأبرار ، ولا ينقص به عدد الفجار

ثم تمتم بين شفتيه :

ما النحو ؟ ما الشعر ؟ ما الكلام ؟
كلام فى كلام فى كلام !

الاختراع

السفينة فى طريقها إلى المشرق والمعري وصاحبه
عَلَى مقدمها يستقبلان الهواء ، والمذياع يغنى الأنشودة
المشهورة على لسان امرأة لاهية تقول بالفرنسية

« عندما تضمنى بين ذراعيك ، أنا أعلم الكلمة التى
ستقولها . . ستقول إنى أحبك ! وهى كلمة كاذبة
ولا شك . . . ولكنى مع هذا أحب أن أسمع
صوتك ! »

والفيلسوف يسأل : ماذا تقول هذه المرأة ؟
والتلميذ يترجم الأنشودة و يتخابث فى سؤال الشيخ
عن رأيه فى هذه المناجاة العصرية ، على لسان امرأة

تخاطب رجلا ، أو على لسان النساء يخاطبن الرجال

والشيخ يتأمل باسماً ويجيب تلميذه راضياً رضى القانطين المستسلمين :

« هو الغرب كله يابنى ماثل فى هذه الأنشودة اللاهية : هو الغرب الذى يأخذ من الحياة ما تعطيه ويطلب السرور ثم لايسوم دنياه طلب الوفاء والكمال ... هو الغرب الذى يأخذ كل شيء بقيمته وكل شىء على حقيقته ، ثم يصقله ويحببه إلى نفسه ليسيغه ويستمرىء مذاقه ، هو الغرب ذو النفس الناطقة التى لا تقول كلمة فى جدها ولا لهوها إلا جمعت فيها خلاصة ماعندها من حضارة وأخلاق وفلسفة وشعور . . . »

قال التلميذ :

أو ليست كل النفوس ناطقة ؟ ألا تفصح كل نفس عن دخيلتها فى غنائها ومناجاتها ؟

قال الشيخ : بلى ، ولـكن شتان تعبير اللسان الذي يقول فيجمع حياته فيما يقول ، وتعبير الثمرة التى ترى قشرتها فترى من لونها وتشم من رائحتها أنها ناضرة أو ذاوية ، وصحيحة أو معطوبة : ذلك تعبيرٌ الفضل كله فيه للقائل ، وهـــذا تعبيرٌ الفضل كله فيه للناظر ، وكلاهما تعبير ولـكن المسافة بينهما كالمسافة بين الحياة والجمود ، والحركة والركود »

فصاح التلميذ : اليوم سيدى الشيخ غربى وهو يفارق الغرب إلى الشرق ! ! فهلا كان غريباً وهو فى بلاد القوم مستريح ؟ أم كتب على الانسان أن يحب ما يفارق ولا يزال ساخطا على ما هو فيه ؟

فصمت الشيخ هنيهة ثم راح يمضغ بين شفتيه

يا ماء دجلة ما أراك تلذ لى

شوقا كماء معره النعمان

اطمئن يابنى . ما أنا إلى الغرب ولا أنا إلى الشرق .
أنا إلى معرة النعمان فهلا آن الأوان ؟

فأراد التلميذ أن يطاوله ويصرفه عما ورد على نفسه فى تلك اللحظة من الحنين إلى وطنه ، وعاد يحاوره وكأنما يتحداه ليستثيره ويجنّبه غاشية السوداء التى هو مقبل عليها :

أفى المعرة مثل هـذه السفينة ومثل هذا المذياع ومثل هذا الصوت الجميل ومثل هذه الأعاجيب ؟

وكان المعرى قد ركب السفائن والطائرات ، وعرف مطايا الـكهرباء ومطايا البخار ، وقال فى كل منها قولة عارضة وهو يركبها أو يترجل منها . إلا أنها رحلة العودة ففيها خلاصة المقال ونهاية المآل ، فيما رأى من هذه الصنوف ولا إشكال ، فقال :

وما حاجة المعرة إلى سفائن البحار ؟ فيها السيارة

وتحوم على فضائها الطيارة ، ولو كان فيها بحر لكان فيها مثل هذه السفينة ومثل هذه الضوضاء

قال التلميذ : وكلها من صنع الغرب الذي ما أدرى أيبرم به الأستاذ أم هو مشوق اليه ؟

قال المعري : الآن فهمت ماتريد . . . فهلا أنبأتنى يابنى ماذا صنع الغرب من هذه الآلات يوم كنا نعيش حياتنا الدنيا فى المعرة ؟ لعمرك يابنى ما صنعوها اليوم إلا لأنهم قد احتاجوا اليها ، وإلا لأنهم قد بنوا على أساس ماسبقها وهيأ الأسباب لها من صناعات القرون الأولى . يابنى ! لاتهولنك المظاهر ولا تعجبك كثرة الأعداد . فلعل مبتدع الشراع والدولاب أحذق من مبتدع البخار والكهرباء ، ولعل القوس والسهم أبرع فى اختراعهما من المدفع والقذيفه ، ولعلهم كانوا يعيشون على عهد الشراع خيراً من هذه العيشة ، ولعلهم كانوا

يموتون على عهد القسى والسهام أكرم من هذه الميتة ! ! ولعل متعة الحالم بالطيران أحب اليه من متعة الطائر بالجثمان

قال التلميذ : ولا أحسبني مع هذا مخطئاً إذا قلت إنني لمحت دلائل الدهشة على وجه الأستاذ يوم ركبنا الهواء أول ماركبناه

قال أبو العلاء . تلك دهشة تغنى عن دهشات

فسأَله التلميذ : أيحب مولاى أن أفهم من هذا أن الكهرباء والبخار وماصنع الانسان منهما لا تستحق دهشة الحكيم كما يستحقها الانسان الطائر فى الهواء ؟

قال أبو العلاء : لا أحب أن تفهم هذا ولا أكرهه ، ولكنني دهشت لمعنى مارأيت حين رأيته أول لمحة ، ثم أغنانى ذلك عن دهشتى للمصنوعات المكررة والظواهر المختلفة . . . أتحسب أن من يدهش للطيران

فى الهواء خليق أن يدهش لكل متحرك بالبخار والكهرباء ؟ أفمن شهد الشراع مرة خليق أن يدهش له مرات كلما حركته ريح شمال أو ريح جنوب ؟ ذلك معنى واحد فى ألفاظ شتى ، أو ذلك جسد واحد فى مختلف الثياب ، وحسبك أن تعلم أن تسخير القوى التى يسمونها بالقوى الطبيعية مستطاع لتزول عنك الدهشة عن كل ما يستطاع من هذا الطراز

فاندفع التلميذ سائلا : أفكل هذه الآلات اذن ليست بالفتح الجديد ؟ أليس فيها ما يستوقف الحكماء من تاريخ بنى الانسان فيما يرى سيدى الأستاذ ؟

فلم يمهله أبو العلاء هنيهة دون أن أجاب :

« لا فتح ولا اقفال !

« وربما فتحت هذه الآلات لانسانك يا بنى فتحاً

جديداً لو أنه سخر الآلات ثم أطلق نفسه من العقال ، أو لو أنه ملك نفسه يوم ملك آلات الأرض والهواء ... ولكنه سخر الآلات المصنوعة ليصبح شبيهاً بها ، ثم ازداد فى التسخير ليزداد فى الشبه . فهو أسير ما صنع ورهين ما ابتدع ، فان سميت هذا فتحاً فالله يفتح عليك ...

*

ولم تَخْفَ لذعةُ السخر والمرارة فى كلمة الشيخ الأخيرة على فطنة تلميذه الملحاح فقال وهو لا يتعمد الاطالة فى الحوار :

أَخالُ انسان اليوم على جميع حالاته أطلق من آبائنا الأولين !

فتمتم أبو العلاء هامساً : أكذاك ؟

ثم انثنى يقول : لأمر ما كان الأوائل يروضون

الحيوان وكنتم فى زمانكم هذا تروضون الجماد : كلٌّ قريب إلى ما يروض ! وما أحسبكم تفلحون فى رياضة حيوان واحد بعد الذى راضه آباؤكم المتقدمون ، ولكنكم كلما قاربتم الآلات خرجتم من رياضتها فى كل يوم بجديد

وتعمد التلميذ المناوأة الخفية فقال :

ومع هذا يغبط مولاى الجماد ويسبح الله الذى أعفاه من الطعام والكساء ، ومن الرحلة والشقاء

ولم يرفض أبو العلاء هذه المناوأة بل جرى فى مجراها فقال متمنيا أو متهكما على حد سواء

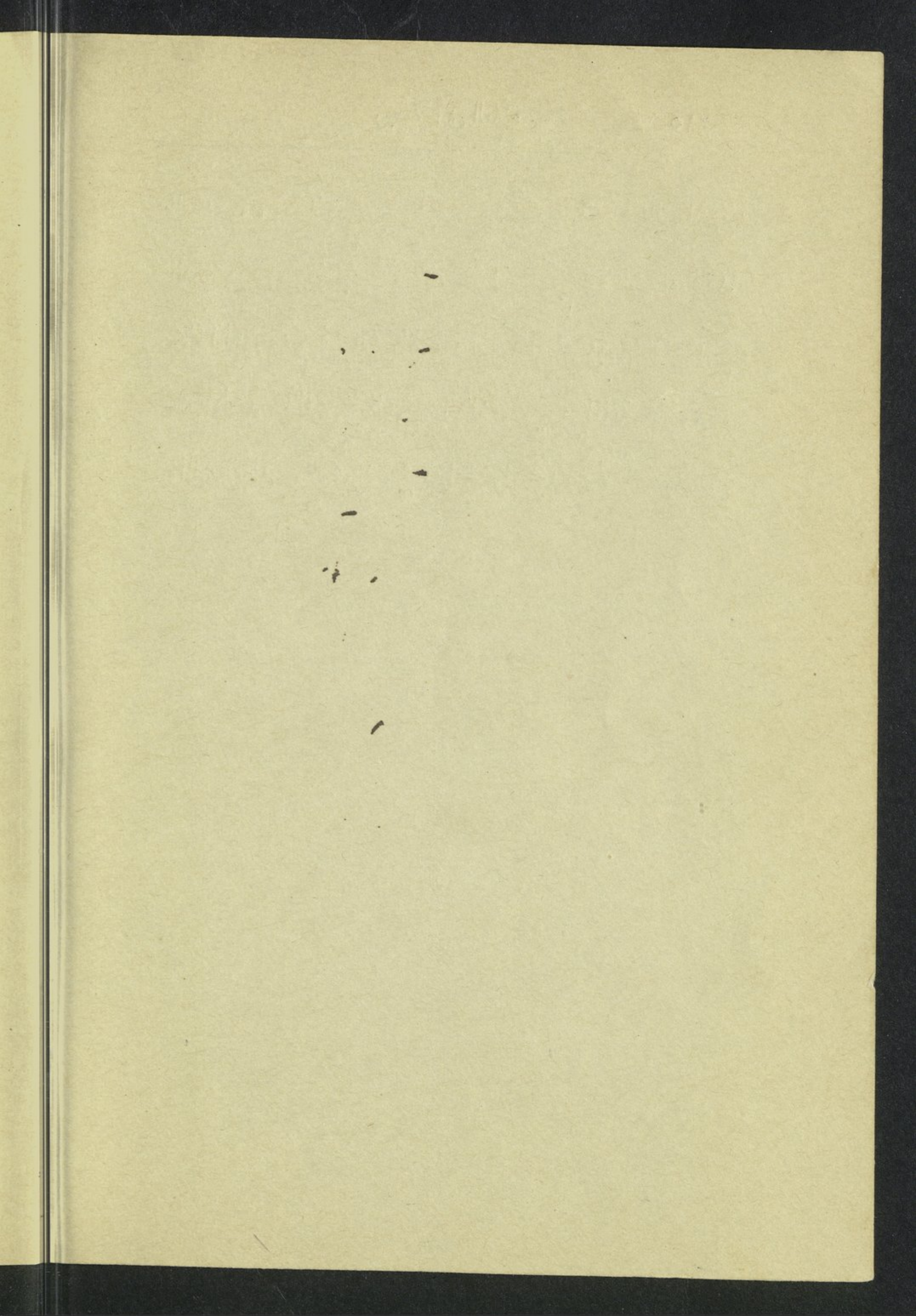
لو عوفيتم كما عوفى الجماد !

فأنس التلميذ إلى هذا التهكم الرقيق وراح يسأل :

وهل عوفى الأقدمون ؟

قال أبو العلاء : كلا . على هذا مضيتم ومضى

السلف ، إلا انهم صبروا حيث تضجرون ، وطلبوا من الدنيا دون ما تطلبون ، فاذا كانوا مثلكم فى الشقاء فلقد كانوا أقل منكم فى الشكاة ، وإذا كان نصيبهم كنصيبكم من الخير فالذى يطلب الألف ويجد المائة محروم ، والذى يطلب العشرة ويجد الخمسين مجدود لا تحسبه من أهل الحرمان



أقصى المغرب

قاتل الله المجاز !

كان هـــــذا أول مافاه به المعرى لتلميذه بعد أن علم سبب الكارثة التى أودت بمئات النفوس من ركاب السفينة ، إذ كانا يركبانها و يتحدثان فيها ذلك الحديث المروى فى المقالة الماضية ، وكانا قد بلغا شواطىء الأندلس حين وقعت الواقعة . وما هى الواقعة ؟ قذيفة أطلقتها على السفينة غواصة من غواصات الثوار فهبطت بها إلى القرار ، ثم نجا المعرى بعصمة الخلود ، ونجا تلميذه ببعض المجهود ، وهما الآن على متن سفينة امريكية تمخر بهما بحر الظلام إلى بلاد العم « سام »

ومال التلميذ إلى الأستاذ يسأله :

أعلمت يا مولاى ما سبب الكارثة ؟

فقال الأستاذ : وما سببها ؟

قال : أنت يا مولاى !

قال : ويحك ! وكيف أكون أنا سبباً لاغراق سفينة أنا راكب فيها ! أهى دعوة صائبة ؟

قال التلميذ : بل هو مجاز خائب ... كتب بعض الصحف ان سفينة من السفن تفارق الشواطىء الأندلسية وعليها ذخيرة عربية نفيسة ... ومن تكون الذخيرة العربية النفيسة غير أبى العلاء ؟ فلما تواترت الأنباء بهذا المجاز النفيس حسب الثائرون على حكومة الأندلس أن هذه الحكومة تبعث بالتحف العربية الغالية إلى بلاد أجنبية ، لتودعها أو ترهنها هناك . فطاردتنا وأغرقتنا لتحرمها هذه الذخيرة ، أو تستولى عليها إذا أدركتها قبل

أن تبتلعها اللجة ، فغرقت السفينة وهلك من هلك من جراء أبى العلاء

قال أبو العلاء : قاتل الله المجاز ، بل هو الذى أهلك القوم كما أهلك من قبلهم أمما خالية أغرقها المجاز فى بحار من الكلام ، وأنا مع ذلك القائل :

لا تقيد علىّ لفظى فانى
مثل غيرى تكلمى بالمجاز !

نعم وأنا القائل أيضاً :

بنى الدهر مهلاً إن ذممت فعالكم
فانى بنفسى لا محالة أبدأ

ثم قال : وإلى أين تمضى سفينتنا الآن بالذخيرة العربية النفيسة ؟ أترانى سأغرقها مرة أخرى ؟

قال التلميذ : بل إلى بر السلامة إن شاء الله ... إلى بلاد العم سام !

قال أبو العلاء : وما عسى أن نشهد هناك غير ما شهدنا أو نسمع هناك غير ما سمعنا ؟

قال التلميذ : كثيراً يا مولاى . . . سنرى قبل كل شىء ملكا عظيما على الطريقة الامريكية .

فتمهل أبو العلاء قليلا ثم قال : أرانى سأقضى منك ديون السؤال كلها فى هذه الرحلة ، فما هى هذه الطريقة الامريكية التى نسمع بها فى كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟ وكيف يكون الملك العظيم ملكا عظيما على هذه الطريقة

قال التلميذ : بالامتحان والكشف الطبى كأنه موظف فى الخدمة اليومية . فهذا الرجل الذى يحكم الدولة العظمى فى الديار الامريكية قد كان مشلولا فى كهولته ثم تقدم إلى الشفاء ، فلما أذاع خصومه أنه لا يصلح للحكم عرض نفسه على الأطباء الثقاة ليشهدوا

له بصحة العقل وصحة الضمير . أما الامتحان فقد جازه عند أبناء وطنه فانتخبوه . أليست هذه طريقة أمريكية فى الحكومة كالطرق الامريكية فى الصناعة والتجارة ، وفى كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟

قال أبو العلاء . وهل أفلح الرجل وصدق الأطباء ؟

فأجاب التلميذ : نعم أفلح غاية مايستطاع الفلاح ، وعالج الشلل فى قومه كما عالجه فى جسمه

فأدركه أبو العلاء متهانفاً وصاح به : غرقة أخرى يابنى !! ومجاز آخر يوشك أن يرسل بالسفينة إلى القرار ... أفصح يا بنى ودعنا من المجاز

فاستضحك التلميذ ، ولكنه شغل بالجد فيما هو فيه عن سخرية الشيخ وارتيابه ، فطفق يقول :

لقد صعد « روزفلت » العظيم إلى كرسى الرئاسة والأمة الامريكية كالجسم الذى له نصف محتقن بالدم

الغزير ونصف منزوف مشلول لقلة الدم فيه ، فكان كالقلب الذى تنتظم به دورة الدم فى جميع العروق ، وأخذ من النصف المحقون للنصف المشلول فدار الدم دورته فى جميع العروق ، وأوشكت الحركة أن تعود إلى جميع الأعضاء

قال أبو العلاء : أتراه أثار الفقراء على الأغنياء كما صنعوا فى بعض الديار الأوربية ؟

قال التلميذ : لو صنع ذلك يامولاى لكان من الفاشلين ، فان هذه البلاد على تقدم الصناعة فيها وكثرة الصناع بين أبنائها تعتصم من ثورة الفقراء على الأغنياء بشتى العواصم ، وتحتمى منها بكثير من الحصون :

منها يامولاى إن باب الغِنى مفتوح لكل فقير مستطيع ، فكل فقير فيها يمنى نفسه بالثروة بعد حين ، ولا يشعر باحتكار الثروة فى أيدى طائفة من الناس تتوارث المراتب وتتوارث الأموال ، فمن هنا يحسب الفقير أنه يثور على نفسه او يثور على أمله حين يثور على الأغنياء

ومنها أن الامريكيين قوم ورثوا المغامرة والمراهنة من أجدادهم الأولين الذين غامروا بالهجرة إلى المغرب المجهول منذ قرون ، فمن شغفهم بالمغامرة والمراهنة أنهم يحبون الانتخاب و ينتظرون السباق فيه بين الأحزاب ، ولا يلجأون من أجل ذلك إلى الأضراب والاغتصاب

ومنها أن الزراعة عندهم توازن الصناعة ، وأن الريف بينهم يوازن المدينة ، وان ازدحام الحواضر لايخلى القرى من الحارثين الحاصدين ، وهؤلاء أقرب إلى جانب الاستقرار منهم إلى جانب الثورة والثوار

ومنها أن حب الدين فيهم قديم ؛ لأن آباءهم الأولين كانوا أناساً متنطسين متطهرين نقموا معيشة الفساد فى أوربا فهجروها إلى الغرب متعففين متورعين

وإنما يثور الانسان على الأرزاق حين يثور على الأقدار .

قال أبو العلاء : أرحتنى من الأستاذية فى هذه الرحلة المباركة أراحك الله . غير أنى أراك قد ذكرت لنا ما منع رئيس القوم أن يثور بالفقراء على الأغنياء ولم تذكر لنا ماصنع لعلاج ذلك الجسم المحقون المشلول ... أتراه رجع فيه إلى الأطباء ؟

قال التلميذ : عفواً مولاى . أحسبها غلطة من غلطات الحداثة فى الأستاذية ، أو أحسبها أسلوبا مبتكراً على الطريقة الامريكية ، ومن كان أستاذاً لأبى العلاء فمغتفر له ماشاء من إمهال وإبطاء

فاعلم يامولاى إذن أنه أجزل من الأجرة والوقت للصانعين ، وأكثر من الأرزاق للشيوخ والعاطلين ، فأكثروا من الانفاق وراجت بهم الأسواق

فسأل أبو العلاء : ومن أين جاء بالمال ؟

قال التلميذ : بعضه من أرباح الأغنياء والفقراء ، وبعضه من الضرائب على رءوس الأموال .

فعاد أبو العلاء سائلا : وكيف رضوا بما فرض عليهم ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، فان كثرة البيع والشراء خير من كساد السلع والخوف الدائم من ثورة العاطلين والمطرودين ، وَالمال الذى يذهب ويعود خير من المال الذى يفسده الركود

فسأَل أبو العلاء مرة أخرى : وهب التجار لم يخرجوا من بضائعهم إلا بمقدار ، فأمنوا بذلك مغبة البوار ، وقنعوا باعتدال الأسعار . فهل تزن الأرض غلاتها ؟ وهل تحكم الحكومة على نباتها ؟

قال التلميذ يقرظ أستاذه العجيب : ما أعجبك

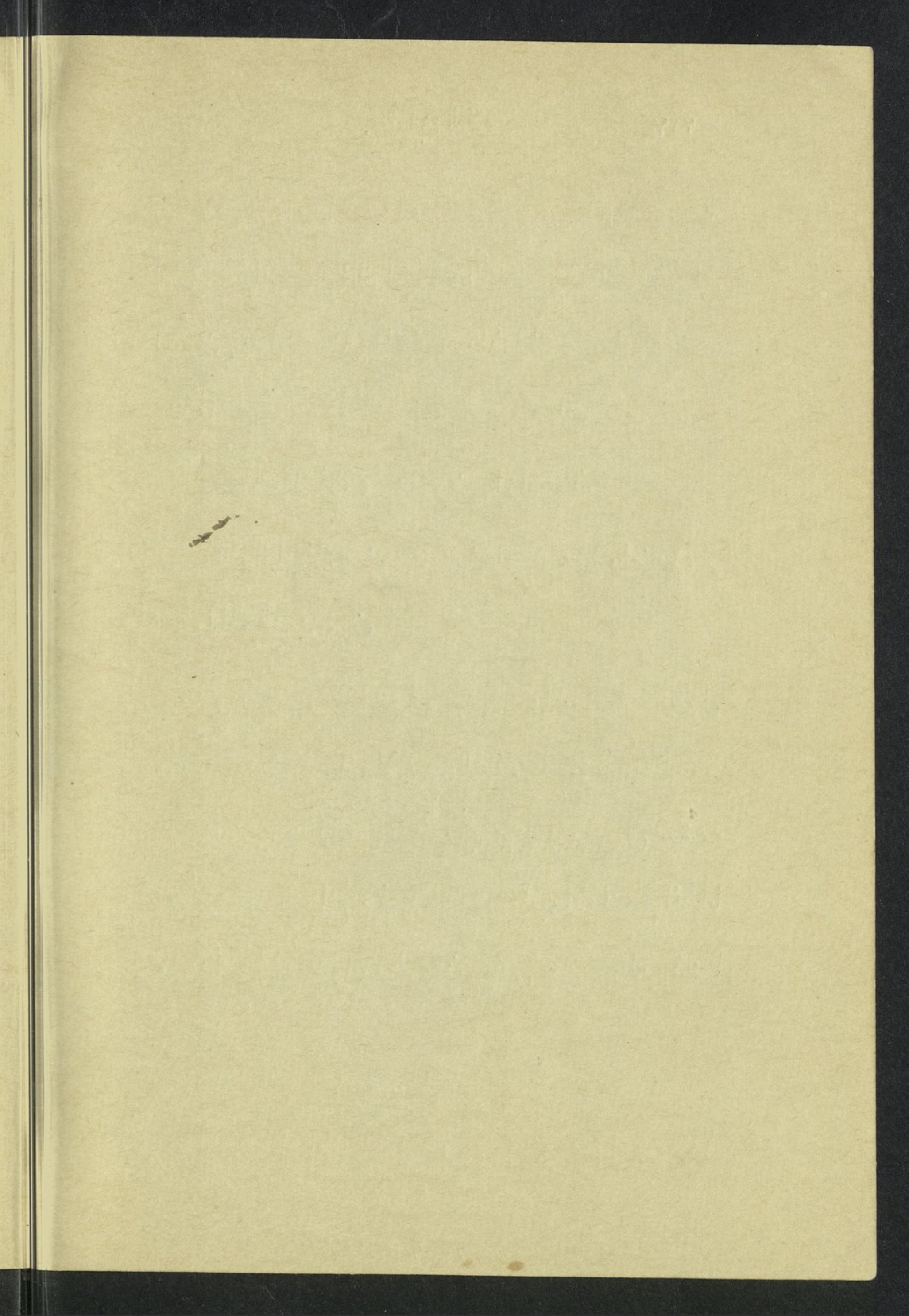
يامولاى من أستاذ وما أعجبك من تلميذ . أنك لتحسن السؤال كما تحسن الجواب . فاعلم إذن يا مولاى أن الأرض قد أخرجت ماشاءت وأن الحكومة قد أتلفت منه ماشاءت ، وهو النصف من جميع الغلات

قال أبو العلاء : وهل رضى الزارعون ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، ثم حمدوا المغبة بعد حين

وانطلقت السفينة فى عبابها وأبو العلاء يقول وكانه يحدث نفسه ولا يعنى تلميذه بما يقول :

لئن نجح الرجل نصف نجاح لقد نجح فى حقيقة الأمر كل النجاح ، فما من الصواب أن نسوم انسانا واحداً كل الصواب ، وأن نغضى من حوله كلنا مخطئين .



أقصى المشرق

قل انهم يحبون العجلة ، قل انهم يكرهون الوقت ، قل انهم حائرون فيما يحبون وما يكرهون . اما انهم يحبون المال وكفى فان من يحب المال للمال لا يتحرك ولا يعيش ، بل يجلس كما تجلس العجوز على القدر المدفونة ، أو كما يجلس الصيرفى على خزانة الذهب ، وهؤلاء لا يجلسون جلسة العجوز ولا جلسة الصيرفى ، ولكنهم يتحركون ويعيشون

كان ذلك حكم المعرى على الأمريكيين أو قل «حكم المعرى للامريكيين» وهو خارج من بلادهم ، وكان قد حضر مع تلميذه عيد الاستقلال فى عاصمتهم ، ورأى

بذخ القوم وإسرافهم فى بذل أموالهم لازجاء أوقاتهم والحفاوة بذكرياتهم ، فلما برحا الشواطىء الامريكية من أقصى المغرب واستويا على مكانهما فى السفينة يعرضان ماعبرا به وعبر بهما ، ويجمعان ماتفرق من الوقائع والمشاهدات قال التلميذ : هذه أمة تحب المال ولا تعمل إلا للمال ، فأبى المعري أن يجارى تلميذه فى حكمه ، وقال عن القوم ذلك المقال

ولا ندرى لم لم يطب المقام فى بلاد الشمس المشرقة لرهن المحبسين كأنما كان هناك فى حبس أشد عليه من محبسيه .

فكان فى أرض « نيبون » يتأفف ويتبرم من كل شىء ومن غير شىء ، ولم يزل مع تلميذه على حذر وامتعاض حتى هجرا أرض نيبون إلى أرض الصين ، وأقاما فيها برهة بين الفتن والثورات والمجاعة تارة

والقحط تارات ، ولكنهما كانا أقرب شيء إلى راحة البال والاقبال عَلَى شهود الأحوال ، لأنهما كانا يشهدان فى الصين جهداً يسر الناظرين أن يبلغ تمامه . أما الجهد الذي كانا يشهدانه فى أرض نيبون فقل أن يكون فى تمامه سرور للناظرين ، ولا سيما الحكماء

قال التلميذ يستفز أستاذه للكلام :

أو ليس القوم فى أرض نيبون على جانب من الشجاعة عظيم ؟ قال المعرى : بلى ! إن كنت تعنى شجاعة الغريزة ولا تعنى شجاعة النية والارادة

قال التلميذ متجاهلا : وما شجاعة الغريزة وما شجاعة النية والارادة يا مولاى ؟

فأجابه الحكيم غير متأفف ولا متبرم : أن الشجاع الحق هو من يعرف الخطر ويخشاه ثم يغلبه بعزيمة هى أعظم من الخطر وأعظم من الخشية . أما الشجاع الذى

يقتحم الخطر لأنه مدفوع اليه بعادات الأقدمين وسنن الآباء والأجداد فذلك أسير لا فرق بينه و بين من يقتحم النار مسوقا اليها بسلسلة من الحديد ، ولا فرق بينه وبين الأسير الذي يقدمه آسروه فى الطليعة وهو لا يملك الفرار ، وقد توجد هذه الشجاعة فى الحيوان كما توجد فى أبناء آدم ، فهي من أصول لا ارتفاع فيها ولا تعلق لها بالتكليف والضمير

وقال التلميذ : لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهى تعبر البحر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود إلى الهجرة ولا تخاف الموت ولا تعرف ماهو لحسبتُ أنه يعنى هذه الشجاعة حين يذكر شجاعة الغريزة وشجاعة الحيوان

فقال المعرى : ما رأيت هـــذه الأسراب ولا أحسبنا فى حاجة إلى رؤيتها لنعرف أن الشجاعة التى

تتعلق بالعادات الموروثة غير الشجاعة التى تتعلق بارادة المريد، وكل من شهدنا فى أرض نيبون من باقرى بطونهم وباخعى أنفسهم فانما هم قالب واحد لا يختلف باختلاف البيئات ولا باختلاف الأفراد، وليست هكذا تكون الصفات التى مرجعها إلى مزية فى الانسان ومزية فى الخلق والتكليف

قال التلميذ : أو ليس القوم خيراً من هؤلاء الصينيين الذين ترضى عنهم ولا تضيق ذرعا بعشرتهم ومراقبة أحوالهم ؟

قال المعرى : أما إن أردت أنهم أفلحوا حيث أخفق الصينيون فأنت على صواب ، وأما إنهم يفلحون هكذا لو كانت أرضهم هى أرض الصين وأحوالهم هي أحوال الصينيين فذلك هو البعيد . . إن القوم قد أخذوا قديمهم من الصين وأخذوا حديثهم من الغرب ووجدوا

فى عزلتهم من وراء بحرهم وعلى خصاصة عيشهم متسعاً من الوقت يأخذون فيه ما يأخذون ويدعون ما يدعون ... فان أردت الانصاف فضعهم حيث وضعت الدنيا أبناء الصين وأنت ترى الفرق بين الأمتين !

قال التلميذ : يعنى الأستاذ الفرق بين المنتصرين والمنهزمين ؟

قال المعرى نعم : وما يدريك لعل أهل نيبون يخدمون أهل الصين بهذه الهزيمة وهم لا يشعرون ؟ لقد كان هؤلاء المنهزمون شتيتاً من الخلق فجمعتهم الهزيمة فأصبحوا أمة تنضوى إلى لواء واحد ، فاذا بالمنتصرين يخافونهم بعد خمس سنوات تجردوا فيها لاتخاذ الأهبة وتوحدوا أو كادوا يتوحدون ، فكيف يكون شأنهم لو تجردوا لاتخاذ الأهبة متوحدين خمسين سنة لا خمس سنوات ، ومن ذا الذى يهزمهم فى المشرق أو فى المغرب

لو تهيأ لهم الوقت كما تهيأ لأعدائهم المنتصرين ؟ علم الله لولا أن أهل نيبون يخافونهم ويفزعون من غدهم لما عاجلوهم بالعدوان ، وما أخالهم مع ذلك آمنين عقبى الأمور .

قال التلميذ : من يسمعك يا مولاى يحسبك من دعاة « الكومنتاج » أو من غلاة المتشيعين لانجيل « سون ياتسين »

ولو كان أبناء نيبون قد أساءوا استقبالك لزعمت أن فى نفسك اثارة من سوء ما استقبلوك ، ولكنهم جمعوا لك المسلمين فى عاصمتهم واستمعوا لك فى معبدهم ومسجدهم ، وصحبوك وبجلوك ، ومللتهم ولم يملوك ، فأعجب العجب أن تبغضهم هذه البغضاء وأن تألف الصينيين هذه الألفة . . .

فقاطعه الحكيم قائلا : لعلهم أساءوا من قِبَل هذه الحفاوة !

فابتدره التلميذ مستغربا : كيف أيها الحكيم ؟ أيأبى مولاى الكرامة وهو كريم ؟ !

فأجاب المعرى : نعم آباها إذا كانت تجارة وكنت أنا فيها سلعة من السلع المعروضة أو ذريعة من ذرائع الترويج والخديعة . . . هؤلاء الناس لم ينشئوا مسجدهم لله ولا للعبادة ولا للمسلمين ولا لأبى العلاء ، ولكنهم أنشأوه للبيع والتجارة ، وما نحن بالسلعة الرخيصة فى أسواق التجار

فقال التلميذ متسائلا : وحفاوة المسلمين فى الصين ما شأنها وما شأن التجارة والكرامة فيها ؟

قال أبو العلاء : تلك حفاوة قريب بقريب . وأظن المحتفين بنا هنا قد كانوا مسلمين منذ قرون !

فصاح التلميذ : كأنما فوجىء بكلام لم يخطر له على بال :

نظن يا مولاى ؟ لقد حسبت أن عندك من خبر

المسلمين هنا ما ليس عندنا ، واننا نسمع من تاريخهم لديك فوق ما سمعنا !

قال : وماسمعتم ؟

قال: سمعنا حديثاً يشبه الأحاجى والأساطير. سمعنا أنهم دخلوا الصين قبل زمان مولاي بعهد طويل ، وإن قتيبة بن مسلم الباهلى قد غزا أطرافها فى عهد بنى أمية ، فكتب اليه ملك الصين أنْ ابعث إلى رجلا شريفاً يخبرنى عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح ، وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابى فقال لهم : إذا دخلتم عليه فأَعلموه أنى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أَطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبى خراجهم ،

فقال لهم ملك الصين : قولوا لصاحبكم ينصرف فانى قد عرفت قلة أصحابه ، وإلا بعثت اليكم من

يهلككم . قالوا : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ... لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أميرنا ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ونختم ملوككم وتعطوا الجزية . قال ملك الصين : فأنا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث اليه بعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها . ثم آجازهم وبعث بما ذكر إلى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب وأنشد شاعر فى ذلك :

لاعيب فى الوفد الذين بعثتهم
للصين أن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى
حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج

أدى رسالتك التي استدعيته

فأَتاك من حنث اليمين بمخرج

فأصغى أبو العلاء ثم قال :

ولا كل هـــذا سمعنا ! فلا تعجب أن يكون المحدثون أعلم بالزمن القديم من الأقدمين

زعيم الصين

جلس الشيخ فى فرضة الصين الكبرى

« شنغهاى » و إلى جانبه تلميذه يترجم له الخطاب الذى

ألقاه زعيم الصين الكبير شيانج كاى شيك عن السيد

المسيح صلوات الله عليه

وكان الشيخ — وهو من المعنيين بأمر الأديان

والمشغولين بعقائد ذوى الآراء — قد سمع أن الزعيم

الصينى تحول عن عقيدة آبائه وأجداده مع حرص أهل

الصين على تراث الآباء والأجداد ، وآثر المسيحية كما

آثرها من قبله أستاذه وأستاذ الصين الحديثة « سون

ياتسين » . . . فعجب لهذا التحول واشتاق أن يعرف

أسبابه و بواعثه من السياسة أو من خطرات الضمائر وبدوات النفوس . فلما أنبأه تلميذه أن الزعيم يتكلم عن السيد المسيح أصغي اليه وقال : أسمعنى مايقول !

وانطلق التلميذ يترجم ما عدده الزعيم من أسباب حبه المسيح وإيثاره عقائد النصرانية وهى : أن المسيح كان قائد ثورة وطنية نهض بأمته فأَحياها بعد أن أماتها طمع الرومان وعسف الطغاة من الأمراء والكهان، وان المسيح كان قائداً لثورة الاصلاح الاجتماعية كما كان قائداً لدعوة النهضة السياسية ، فأنحى على الفساد والمفسدين وبشر بالطهارة من الرجس والرجاء فى الخير والاستقامة... وأن المسيح كان مع دعوته القومية والاجتماعية داعياً إلى الثورة الدينية متمرداً على الشعائر البالية والخرافات الموروثة والرياء الشائع بين أئمة الدين وأحباره ، وإنه قد استطاع ما استطاعه وهو رجل فقير من بيت فقير فى

بلد فقير ، فلم يكن وَارث ألقاب وأموال ، ولم يكن سليل أحبار وأَقطاب ، ولا كان له مظهر من مظاهر الدراسة الخاوية ولا التعليم الموقر بالنفايات والقشور . بل كان صاحب قلب كبير يستوحى العناية الربانية ويستلهم الفطرة السليمة ، ويروى عن صفحات الكون ولا يروى ما حشيت به الأوراق وامتلأت به قماطر الهياكل . . . .

قال المعرى : أرأيت ؟

قال التلميذ : ماذا أيها الحكيم !

قال إن الرجل قد دان بالمسيحية لأنه قد آخى بين حياته وحياة المسيح ، وَاعتد نفسه مسيحا جديداً قام من سلالة الفقراء ومن لا يُحسبون بين العلماء ، واختاره الله لاحياء الصين بما ابتعثه فيها من ثورة قومية على الطغاة والمغيرين ، ومن ثورة اجتماعية فيما سماه «الحياة الجديدة»

وأوصى فيه باالتطهر والاستقامة والفداء، ومن ثورة دينية فيما أنكره على الكهان والشيوخ ، فهو قد آمن بالمسيح لأنه يؤمن بنفسه ، وهو قد أبغض الرومان لأنه يبغض « المانشو » واليابان وزمرة المتجرين بالأديان .

قال التلميذ : أو تأذن أيها الحكيم باضافة قليلة

قال المعرى : أو كثيرة !

قال التلميذ : لعله آمن بالمسيح لأنه آمن بنفسه وآمن معها بزوجه

فسأله المعرى : وماذا تعنى !

قال أعنى ان « شيانج كاى شك» يتيم تكفلت به أمه وأنفقت عليه من سم الخياط ومن فضل الطوى والقناعة ، ورجت فيه الخير يوم يئس منه الأقربون ونفضوا الأيدي من حاضره ومؤتنف أمره ، وما زال

يستمدها العون حتى بعد أن كبر وتولى القيادة وباء بالهزيمة وفر إلى اليابان وهو لا يملك قوت أيام . فللمرأة شأن أى شأن فى قلبه وعقله ، وخليق بمن كان كذلك ثم رزق الزوجة الصالحة الرشيدة أن يركن اليها ويطمئن إلى عطفها وخلوص طويتها ، ويحسب الصلاح فى صلاحها ، والدين فى دينها ، والايمان فى ايمانها ، فاذا كانت مسيحية فما أقربه مع الأيام أن يتسلل إلى الايمان بالمسيحية ، وإذا كانت من أسرة قديرة على المذهب المسيحى فما أولاه أن يعيش فى كنف الأسرة وأن يشعر بشعورها ! ولقد كانت لأستاذه «سونياتسين» زوجة مسيحية فحسن على يديها ايمانه بدينها . وما كانت زوجة الأستاذ العظيم إلا شقيقة زوجة المريد العظيم . فما أعجب هذه الأسرة التى أنجبت بنتين يدين بدينهما زعيمان من زعماء الصين كبيران ، ورجلان من رجال

العالم خطيران ، عدا من أنجبت من أبناء وبنات كلهم علم من أعلام هذا الجيل فى هذه البلاد ؟ !

قال المعرى : لاعجب إذن أن يؤمن الرجل بالعقيدة التى توافق إيمانه بنفسه وإيمانه بزوجه وإيمانه بأستاذه ، وإيمانه برجاء بلاده

فعاد التلميذ يسأل : وما رأى الحكيم فى رجاء بلاده ؟

قال المعرى : إن نقصت مساحات أرضها فقد تزيد قوة نفوسها ، وإن تقاربت مسافاتها وأطرافها فقد تتقارب علاقات سكانها وأواصر أبنائها ، وإن غلبوها بالسلاح فقد تغلبهم بالكثرة ، وَإن طال الزمن على رجائها فما هو بأطول من أزمانها فى القنوط والجمود . . . هى ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لها المنصفون

قال التلميذ : تلك بشرى يفرح بها القوم إذا سمعوها

فهل من وصاة أوصيهم بها ، وهل من آفة أحذرهم عواقبها ؟

قال المعري : آفة القوم انهم بين الحضر والبادية فلا هم جادون فى الحضارة ولا هم جادون فى البداوة . فليجدوا فى إحداهما فذلك خير من حيرة المنبت " لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى

قال التلميذ : لكأنك يامولاى قد عشت فى الصين منذ عشت فى الدنيا . لو رأيت بناءهم لرأيت قصوراً فى أشكال خيام . وذلك شأن كل « بناء » فى الصين

زهرا

شتان زهد الهند وزهد نجد

ذاك زهد السآمة من الوفر والاغراق والابتذال ،
وهذا زهد الأنفة فى وجه الضنك والضرورة

زهد الهند زهد الذى اكتظ من صنوف المائدة
حتى عافها وأعرض عنها

وزهد نجد زهد الذى لم ير المائدة وأنف من مذلة
الحاجة اليها . . .

كان هذا حديث المعرى لتلميذه وقد وصلا إلى جدة
وقفلا من مدن الحجاز ، بعد طواف طويل فى الصين
والهند وفارس والعراق .

وكان التلميذ يسأل أستاذه عن شظف النجديين من أتباع عبد الوهاب ، إذ يحرمون على أنفسهم كل ما يعز عليهم وجوده فى الصحراء النجدية . وهو ينتظر رأي المعرى فى هذا الشظف ، وقد علم أنه أخذ نفسه بمثله أيام الحياة .

فلما قال له المعري ان القوم فى الصحراء يزهدون زهد الأنفة فى وجه الضرورة فهم أن حكيم المعرة يستكبر أن يساويه فى زهده مئات وألوف ، وأحب أن يحسب القوم مضطرين غير مخيرين ، أو مسوقين غير سائقين ، فرجع اليه سائلا :

أفترى كل محتاج زاهداً فيما يحتاج اليـه ، آنفاً من الاقرار بالحاجة والحرمان ؟

قال الشيخ كلا . إنما تفعل ذلك الأمم التى لها عزة وليست لها وفرة . فهى إذن تفرض على نفسها القناعة

وتنفض عنها شعور المذلة ، ولو ضعفت ولانت لجمعت على نفسها حرمان الفقر وحرمان الذل والاستكانة ، فترى أنها محرومة وأنها دون من يستمتعون بالخير والبذخ والرفاهة ، ولا ترى كما يرى هؤلاء النجديون أنهم محرومون وأنهم مع ذلك خير من المستمتعين !

قال التلميذ : لاغرو . إننى لأسمع المعرى الهندى !

قال الشيخ : ويحك . هل عدنا إلى قديم هذه الدعوى ؟ فمن ذاك المعرى الذى ولد فى الهند أو الهندى الذي ولد فى المعرة ؟

قال التلميذ : هو الذى قال :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلنْ ما أخرج الماء ظالما
ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا بيض أمّات أرادت صريحه

لأطفالها دون الغوانى الصرائح

ولا تفجعنّ الطير وهى غوافل

بما وضعت فالظلم شر القبائح

ودع ضَرَب النحل الذى بكرت له

كواسب من أزهار نبت فوائح

فما أحرزته كى يكون لغيرها

ولا جمعته للندى والمنائح

مسحت يدى عن كل هذا فليتنى

أبهت لشأنى قبل شيب المسائح

بنى زمنى هل تعلمون سرائراً

علمت ولكنى بها غير بائح

سريتم على غي فهلا اهتديتم

بما خيرتكم صافيات القرائح

وصاح بكم داعى الضلال فما لكم
أجبتم على ما خيّلت كل صائح

متى ما كشفتم عن حقائق دينكم
تكشفتم عن مخزيات الفضائح

فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم
ولا تلزموا الأميال سبر الجرائح

ويعجبنى دأب الذين ترهبوا
سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

وأطيب منهم مطعماً فى حياته
سعاة حلال بين غاد ورائح

فما حبس النفس المسيح تعبداً
ولكن مشى فى الأرض مشية سائح

أليس فى بعض هذا ما ينسب الرجل إلى أمة الهند ودين البرهميين ؟

فجرى السخط فى مجراه من قلب الشيخ الكظيم :
أن ينقلب هزؤا كلما أوشك أن ينفجر غضباً . وقال :
لو صح هذا لما بقيت أمة فى الأرض إلا نُسبتُ اليها .
ما لكم لا تصدقون انها الفاقة وانها الرحمة ؟ أبلغ من
سوء ظنكم بأنفسكم ألا تفرطوا فى أكلة إلاخوفاً من
غضب معبود ؟ وماذا يضيرنى من برهما إن غضب
وما هو بصاحب نار ولا بصاحب نعيم ! وَمالى ولدين
أناس يؤمنون بقداسة بعض الحيوان ونجاسة بعض
الانسان ؛ ذلك لا يلمسونه من هيبة ووقاية وهذا
لا يلمسونه من كبر وزراية ؟ ويحك ! أينسب إلى الهند
من يحقن الدماء ؟ فما قولكم فى الحسام وهو من الهند
فى المعادن والأسماء ؟

ثم ماذا تقولون فيما قلت :

وجدت الشر ينفع كل حين

ومن نفعٍ به حمُل الحسام

وليس الخير فى وسع الليالى

فكيف نسومها ما لايسام ؟

انى اذن لمن اتباع صاحبكم نيتشه ؟ أو من أتباع أصحابه الفاشيين ؟ ومالك لا تحسب علىّ انكارى لزعم الهند حين أنقض ما يقولون :

يقولون ان الجسم ينقل روحه

إلى غيره حتى يهذبها النقل

فلا تقبلنْ ما يخبرونك ضلة

إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وأشفق التلميذ أن تكون غضبة فسكون . وقد علم أن صاحبه أصعب ما يكون مراسا إذا سكن بعد غضبة . فيومئذ لا كلام ولا حوار ولا جواب غير

الوجوم والازدراء ، ولكنه إذا انتقل من ثورة إلى ثورة أو تدرج من سخرية إلى فكاهة . ففى استطالة الحديث معه رجاء

قال التلميذ : أمن النسبة إلى الهند ينفر مولاى كل هذه النفرة ؟ فمن قال انه من الفرس كيف يجاب ؟ ومن زعم انه من المجوس ماذا يسمع من زجر وعقاب !

قال المعرى : يقال له صدقت وبررت ، وانه مع ذلك لعلى دينهم لأنه يعجب منهم إذ يقول :

عجبت لكسرى وأشياعه

وَغسل الوجوه ببول البقر

فمن التقية أن ينكر الانسان مابه يدين . وأن يكون نكرانه علامة اليقين . . . أليس كذلك ؟

وتلطف التلميذ اللبق فى نقل الحديث إلى فارس والفرس وما كان فيه وما يكون ، وتذاكرا ما مر بهما

ومرا به فى تلك البلاد ، فسرى عن الشيخ بعض ما اعتراه من غضب وامتعاض لنسبته إلى البراهمة والمجوس . وضحك الشيخ وتلميذه كثيراً حين ذكرا ذلك الكرسى الذى كان يجلس عليه بعض الشاهات — عند قضاء الحاجة — فيعزف بالنشيد الملكى تحيةً للجالس عليه ! !
وقال الشيخ : حسناصنع عاهل الفرس الجديد أعانه الله على ماتصدى له من خير وتهذيب . انه أراح أمته من هذه المراسم وهذه التفخيمات التى أفسدت عليهم ماأفسدت ، ونسوا كل شىء ليذكروها وحدها حتى حين ينسى الانسان كل تفخيم وتبجيل ... ان المراسم آفة هذه الأمة الطيبة الرضية ، فلا أدب لهم ولا علم ولا دين ولا شريعة إلا وفيها آية المراسم ظاهرة ، وتحية المراسم ناطقة ، وديوان المراسم معقود ومشهود . ولئن خلصوا منها لقد خلصوا من قيود تحبس الرؤس قبل الأعضاء والأقدام

فسأل التلميذ . وماذا بقى منهـــا فيستحب لهم الخلاص منه ؟

قال المعرى انهم يقتدون بالأمم الكبرى فى ازيائها وشعائرها ، وان أخوف ما نخاف عليهم أن يحسبوا القوة والمنعة فى هذه الأزياء وفى هذه الشعائر ، فيتقيدوا بها من جديد ويخلصوا من تقليد إلى تقليد ، ولئن هداهم عاهلهم السديد فى مسعاهم المجيد ، لقد بلغ بهم ما لم يبلغه الأكاسرة ولا الهرامزة الأولون

في مصر

على مقربة من سيناء قال حكيم العربية لتلميذه كأنما هو الذى يقوده :

هذه هى البادية !

قال التلميذ : أو قد عرفتها ؟ قال كيف لا أعرفها ...

... وأن الشمس لتتغير وما غير الله البادية منذ خلقها ، ولا يغيرها حتى يطويها مع الأرض أو السماء !

قال التاميذ : فعلى اليمين بيت المقدس وعلى الشمال أرض مصر ، فأيهما يؤثر الأستاذ بالزيارة

وكان شيخنا قد سمع شيئاً عن متاعب فلسطين والشرق العربى ، وسمع شيئاً عن عجائب مصر .

فانشد :

أما الحجاز فما يرجي المقام به

لأنه بالحرار الخمس محتجز

والشام فيه وقود الحرب مشتعل

يشبّه القوم شدت منهم الحجز

وبالعراق وميض يستهل دما

وعارض بلقاء الشر يرتجز

ثم قال : لا أدخل أرضاً يجلى عنها العرب ، فلندخل مصر آمنين .

قال التلمذ : إن أبيت أن تدخل أرضا يجلى العرب عنها فهلا بعثت اليهم بتحية أو نصيحة !

قال الشيخ : النصيحة لهم أن يصاولوا بالقوة والمال من يغلبونهم بالقوة والمال .... فهم هم الظافرون ، قصر الزمان أو طال

وسأله التلميذ : ومن أين لهم بقوة ومال ؟

قال : من العزم والاباء .. من أبى ماهو فيه استمد العزم من إبائه ، وجاءته القوة والثروة إلى موطىء قدميه

قال التلميذ : وهبهم بلغوا منهما جهد الطاقة أفيبلغون منهما يامولاى مبلغ الدول الكبار ؟

فأجابه الشيخ : بل يبلغون منهما ما يتعب الدول الكبار ، وحسبهم أن يتعبوها فيستريحوا ، أو يرجعوا إلى حال خير من قبول الضياع والفناء

***

ودخلا مصر فقضيا أياما بين ترحيب وتسليم ، وبين ربوع وآثار ، وسأل الشيخ بلسان أبى الطيب الذى كان يتعصب له ويستعيد شواهده :

أين الذى الهرمان من بنيانه

ماقومه ؟ مايومه ؟ ماالمصرع ؟

ثم أنشد :

تتخلف الآثار عن أصحابها

حيناً ويدركها الفناء فتتبع

ثم قال : أشهد وأنا بينهما أنهما لم يفنيا ولم يتبعا . فما أعظم يقين أبى الطيب بفعل الزمن ودولة الفناء

قال التلميذ : ما هو بأعظم يقينا بالزمن وفعله والفناء ودولته من القائل :

زحل أشرف الكواكب دارا

من لقاء الردى على ميعاد

ولنار المريخ من حدثان الد

هر مطف وإن علت فى اتقاد !

فرد عليه الشيخ خاشعا وهو يجمجم بين شفتيه : نعم . وتهون الأعمار عند ذاك ويهون الخلود

واسترسل التلميذ فى نغمته الأولى فقال : هذا

لحدٌ أبى أن يصير لحداً مراراً ، وأبى أن يضحك من تزاحم الأضداد

قال الشيخ وهو فى جمجمته الأولى : لقد دخله الأحياء فأَبى أن يكون لحدا مرة بله المرات ، وضحك من صاحبه الأول قبل أن يضحك من أضداده . وإنى والله لأسأل عن هذا الطود المشيد كما سأَلت عن الورقاء :

أبكت تـلكم الحمامة أم غنـ
ت على فـرع غصنها المياد

فما أدرى هنا أهو عنوان غلبة الموت أم عنوان غلبة الحياة ... إنما هو على الحالين عنوان شقاء الانسان ، وعبث الطغيان

وعاود الشيخ وجومه على أشد ما يكون بين إطلال الفراعنة ومروج وادى النيل ، وإنه ليروض نفسه على

إقامة أيام إذ حانت له الطرفة التى سماها أعجب العجائب فى بلاد العجائب ، فانتوى الهجرة من قريب

كان ذلك فى ناحية من الصحراء وقد تردد عليه رجل من كتاب الصحف فسأل الشيخُ تلميذه : ماذا عساه يريد ؟

قال التلميذ : إنه يعتذر

قال ومم الاعتذار ؟

قال : إن الرجل لكاتب المقال الذى أطلعتك عليه تفكهة وعبرة يوم وصلنا إلى هذه الديار

قال : تعنى الرجل الذى نعى على حكومة هذا البلد أنها احتفلت بمن سماه أمام الملحدين وشيخ الكافرين ، وأنها من أجل ذلك خليقة باغضاب المسلمين والمروق من حظيرة الدين

قال التلميذ : هو بعينه

فعجب الشيخ وسأل : وما اعتذاره اليوم ؟

قال : اعتذاره أنه سيلقى عليك المقال الذى أعده للانحاء على الحكومة لو أنها قصرت فى لقائك ، وأحجمت عن استقبالك . فهم خصوم الحكومة ينعون عليها كل ما تفعل ويقدحون فى كل ما تنوى ، فان هى أكرمت وفادتك قالوا ما قد علمت . . . وإن هى قصرت فى حفاوتها فهم قائلون ماستسمعه الآن

قال المعرى : أحسبهم كانوا قائلين يومئذ أن هذه الحكومة تنكرت للعرب وآداب العرب ، وقطعت ما بينها وبين لغة القرآن من سبب ، وباعت نفسها للفرنجة ، وحادت عن سواء المحجة ، وغير ذلك مما ينتظم فى هذا النظام !

قال التلميذ : أحسنت يامولاى . . . إنك اليوم لفى طليعة المرشحين للكتابة فى الصحف الحزبية ، وعلى

رأس المقدمين للخوض فى غمار السياسة المصرية . . .

هكذا كتبوا ، وعلى هذا دأبوا ، ولهذا أقبلوا يعتذرون.

وفى هذه اللجاجة تنقضى عليهم الأيام والسنون

فردد المعرى قوله القديم

ما خص مصرا وبأ وحدها

بل كائنٌ فى كل أرض وبأ...

لكن هـــذا هو الطاعون الذى يحمد عنده

كل وباء .

إلى المعرة يابنى فقد ختمنا المطاف ، وشبعنا من

المضيفين والأضياف

وكان « كاتب هذه الأسطر » فى محضر الفيلسوف

فقال : إن أسوان تدعوك أن تجعل الأوبة من طريق

الجنوب ، وإن طالت المسالك واختلفت الدروب

فدارت على لسان الفيلسوف نوبة الاستشهاد

بكلامه القديم ، وأجابه ببيت من لزومياته يذكر فيه اسوان إذ يقول :

اسوان أنت لامن الركب نيتهم
اسوان . أى عذاب دون عيذاب؟!

لقد زرتك فيها قبل اليوم يابنى ، فاحتسبْ دعوة اليوم فى تلك الزيارات ، وخلّنا فى عالم الفكر من هذه المجاملات والمصانعات . أما دعوتنى فيها وأنت يافع تحسب أنك تكره الحياة لأنك مملوء اليدين بالحياة ؟ أما دعوتنى فيها وأنت فتى تثور وتحسب إنى معك حين تثور ؟ أما دعوتنى فيها وأنت كهل تصالح الدنيا لأنك أنفت من مخاصمة الدنيا ؟ ! أما دعوتنى فيها وأنت تزعم أنك تناقضنى بانكار الأحزان وماأنكرتها إلا ترفعاً عن الشعور بالحرمان ؟ إنك دعوتنى كثيراً وإنى أجبتك كثيراً ، وإنى لألقاك حيث أنت خير لقاء ، وإنك لتلقانى وتسمعنى حين تشاء

نشيد وداع

بِناةَ ضريحي طال بالصخر ابطاء

فهل وطّأوه أو تعداه ايطاء ؟

وهل لان أو يأبى على اللين نخوةً ؟

وهل رقّطوه أو سرت فيه رقطاء ؟

عرفت انتظار الموت . أما منيّة

وطول انتظار ، فهو للقصد إخطاء

« متى ينقضي الوقت والله قادر »

فتغطينيَ الدنيا ويحمد إغطاء [1]

---

(١) أغطاه : بمعنى غطاه

أرانى لديكم كالمعرّى معرضا

لمن شاء والركبان حولى خبطاء[1]

أقمتم لذكراى المآدب فاستوى

بمادبة النسيان منع وإعطاء

وما نضجت تلك الثمار فما لكم

دعوتم ولم تخرج من الزرع أشطاء[2]

ذرونى فلى فيكم كتاب وسيرة

جديدٌ صباها وهى فى الدهر شمطاء

إذا حان يومى بينكم فهى عندكم ،

وعندى لكم شكر لراعيه طاطاء[3]

---

(١) الفرس الخبطاء : التى تضرب الأرض برجلها وهو من علامات المرح أو القلق

(٢) أخرج الزرع شطأه : أى ظهر فيه الورق والفروع

(٣) أى موطأ متطامن

وهذا وداعى لازم غير لازم[١]

إذا عاب بعض الشعر عى وإيطاء[٢]

لعلى أراكم بعد ألف وبينكم

ألوف لهم ذكرى من الحمد عيطاء[٣]

عن المعرى :

عباس محمود العقاد

(١) من لزوم مالا يلزم

(٢) تكرار القافية

(٣) طويلة الجيد

